هاجر بسام

مصمم الغلاف إلياس محاح

تابوت الإحساس

مجموعة قصصية

2020

لا يحلل الناشر أي اقتصاص أو نشر وإلا يعرض صاحبه للمساءلة القانونية ...

المؤلفة هاجر بسام

هاجر بسام ثابوت الإحساس

هاجر بسام تابوت الإحساس

إهداء

-إلى التي علمتني حب الكتابة أختي جميلة كجمال روحها..
إلى" يوسف عبد الكريم" و" يمن راونا" أحبكما
-إلى أستاذتي الفاضلة التي قالت لي يوما إني لن أنجح مهما حصل لأعيش من أجل أن يخيب أملها أبدا
- إلى أبي و أمي تاجا رأسي
- إلى صديقتيّ سمية شيخاوي و حياة بورزة
- إلى أستاذة اللغة العربية حيمد دليلة تلك التي جعلتني أثق في نفسي
-إلى كل من خانني وعلمني أن الحياة مستمرة
-إلى كل من يحبني ومن ساندني من قريب أو بعيد
- إلى كل عائلتي...
- إلى قريب لي أخبر ابنه أن لا يشاركني اللعب لأني سأصبح فاشلة في مستقبلي شكرا لك كلمتك كلما ضعفت تذكرتها لأصبح أقوى ،علمتني أن لا أكون كذلك
- إلى من سمعني طوال 19 سنة دون كلل إنها كتبي وقصائدي .
- إلى كل فاشل في إيجاد عمل وتخرج من كلية الإعلام والاتصال جامعة الجزائر 3 ،نحن نتشابه
-إلى كل الحاقدين والناقدين شكرا لكم
تمت بحمد لله

شكر خاص لمصمم الغلاف شكرا لوقوفك معي رغم أني مفلسة

لياس محاح

مقدمة

" لأن الجميع يحب الدخول في المواضيع دون مقدمات ...

لأن المقدمات دائماً تكون أجمل أريد نهاية لائقة ولو لمرة واحدة في حياتي

لأني صرفت الكثير من الأموال على كتب بناء على مقدمتها لأجد بعدها أن الكتاب لا يستحق ثمنه لكل هذا ....ولأجل ذلك ...أقلب الصفحة .."

بسام ثابت الإحساس

نظّـــــــراتـــــي

أتـذكر جيـدا اليـوم الأول الـذي دخلـت فيـه المدرسـة لـم أكـن أبكـي مثـل الأطفـال بـل حتـى أنـي سـخرت مـنهم وكنـت أنظـر إلـيهم بـازدراء ... كنـت الأقصـر بـين صـديقاتي وأقلهـن كـلام وأجلـس فـي الطاولـة الأولـى لـيس لشـيء مميـز أكثـر مـن كـوني أرتـدي نظـارة طبعـا منـذ صـغري اعتـدت علـى الأمـور المشـرفة فكـان أمـر مـدهش أن تحضـى بالطاولـة الأولـى فـي الصـف ،وكمـا وصـفت نفسـي فـإني حضـيت بعـدها بـأمور كثيـرة ..زينـب هـذا هـو اسـمي ، أتـذكر كـم كنـت نجيبـة ونابغـة ولازلـت كـذلك أتـذكر كـم كـان ممـلا أن ألعـب بالـدمى ولازلـت أراه ممـلا، تلـك الفتـاة النجيبـة الصـامتة أنظـر لأي شـيء بنظـرة محقـق شـرطة فغالبـا أكشـف الفتـى الـذي يحـاول التقـرب منـي .. أكشـف الصـديقة المزيفـة ومـا أكثـرهن ، ولـم أكـن أقـدّر أي شـيء حـولي وربمـا أكبـر مـا يمكـن أن تحضـى بـه إذا أعجبـت بـي هـو ابتسـامة لا غيـر، لتنجـوا فـي المدرسـة مـن التنمـر أو العـيش علـى الهـامش هـو أن تملـك إمـا عائلـة ثريـة أو عائلـة مثقفـة كـأم طبيبـة أو أب مـدع عـام أو شـرطي ، أو يتـاح لـك خيـار أن تكـون مجتهـد أو نابغـة وهـو الخيـار الوحيـد لأمثـالي لـذا فـأجبرت أن أكـون كـذلك لأفـرض نفسـي واسـتطعت ذلـك ، لـم أكلـف نفسـي التفكيـر فـي الحـب أبـداً.. دعنـا نعـود إلـى الجـزء المهـم فـي قصـتي نظّراتـي ...هـي الشـيء الوحيـد الـذي يجـب أن أشـكره وأن أعتذر منه ..

فـي أيـام أبريـل مـن أواخـر السداسـي فـي الجامعـة خرجـت مـن محاضـرة رأسـي يغلـي منهـا ..إنهـا الطريقـة المملـة لتلقـي الـدروس وفـن التعـذيب الـذهني، أنـا لا أبـالغ البتـة أحـدثك عـن شـعور إذا كـان الأسـتاذ الـذي يجلـس قبالتـك هـو فـي السـبعينات ،ولا مفـر مـن رؤيـة تفاصـيل تلـك التجاعيـد البغيضـة التـي أكرههـا أكثـر مـن كُرهـه لهـا ، ولا مفـر مـن الاسـتماع إلـى سلسـلة التـواريخ التـي يلقنوهـا لنـا منـذ الصـغر، طبعـا وسلسـلة مـن مغـامرات شـبابه التـي أراهـن علـى أن حتـى أحفـاده لا يسـمعونها ،ولأن مقياسـه مهـم يتعـين علـي الـدخول لـه لأحضـى بـبعض النقـاط كالعطايـا لا يقبـل أن يطعـن فيهـا أبـدا ..فـالطعن هـو حـق مشـروع علـى الـورق وجحـيم ومشـاكل مـع هـذا المسـن ،الـذي لا تسـوّل لـه نفسـه أن يتفضـل عليـك بحقـك ..وقـد آت عيـب عظـيم أن يتـوج عملـك بنقطـة جيـدة .. خرجـت بعـدها ألعـن تلـك الجامعـة كالعـادة هـذا شـيء صـغير مـن يومياتـي أوقفتنـي صـيحات زميـل لـي بالصـف مهـووس بالدراسـة لـم أكـن أحـب مصـاحبته، ولا مصاحبة المستهترين أقصد وببساطة لم أكن أحب أن أصادق أحد .. أجبته

- نعم ماذا تريد ؟

-هل تقصدين الكافيتريا ؟

-لا ولا المطعم ..

-(لاحظ انزعاجي): آسف كنت أظن أن المحاضرة كانت مملة فأردت أن ترافقيني إلى المطعم على حسابي طبعا

-(تحسست شعري) :أشكرك أنا لا أريد لدي عمل مهم عليّ القيام به اليوم

-(ابتسم) : حسنا كنت أرغب بشدة مرافقتك ، حظا موفقا

-(ابتسمت بزيف) : حسنا وداعا

أجزم أنك الآن تدرك أني فضة ، نعم أنا لا أحب أحد ...لا عائلة لدي نشأت في الميتم أنا لا أقول هذا لتشفق علي بل على العكس بعد الغباء هذا ما يستفزني ..

قصدت بعد الساعاتيّ لأن ساعتي تلفت ، أكره أن أعطي الأشياء أكثر من قيمتها لكن الحقيقة التي يجب أن أقر بها أني حقا أحب هذه الساعة، منحت لي في الميتم من طرف مديرة الميتم ، وصلت إلى المحل ،كان علي الجلوس على كرسي معطوب أحد أرجله كان عليّ الجمود فوقه لأني سأسقط إن أكثرت الحركة وكان عليّ الاستماع للعجوز المصلح عن أسعار البطاطا، وددت أن أسأله ما شأني في ارتفاع الأسعار أو نزولها؟ وما شأني في زوجتك ، وكيف التقيت بها وما شأني كيف عشت شبابك ؟ لكني وفرت هذه الأسئلة لنفسي وأنا أبتسم لنكاته المملة عليّ مجاملته لنكاته التي لا تضحك مطلقاَ أبداً بل و تبعث في النفس ضيق الصدر وانقباض القلب ،عانيت الأمريّن وأنا أناجي الله أن يكمل عمله بصمت . ..بعد مدة دخل شاب كان أسمر ..نوعا ما بل أسمر وبنيته قوية ووسيم يجلب النظر نعم وسيم لست متأكدة من الأمر المهم، نظر إلي بإمعان وابتسم ، لم أرد تلك الابتسامة ، فضحك من تصرفي ثم قال :

- طالبة ؟؟

- نعم طالبة، هل أبدو كذلك ؟

- (ابتسم بمكر) : الجامعة تبعد بضع أمتار من هنا

-(احمرت وجنتاي وشعرت أنه أخجلني) : حسنا ، وضحت لي كم أنت ذكي

-(ضحك ساخرا): ومن قال ؟

صمتت بعدها لم أكن أود أن أطيل الحديث معه ، بعد مدة قصيرة دفنت رأسي في كتاب لكي أتجنب النظر إليه لا تسأل لما ؟

بعد مدة أفاقني من غوصي ذاك الزميل نادى : زينب ، تأكدت انه هو دفنت رأسي في الكتاب لكنه أعاد النداء لعنته وشتمته في خاطري هل كان عليه مناداتي باسمي الذي أكرهه

بعد مدة رفعت رأسي أنظر إليه سار نحوي فابتلعت ريق من انزعاجي طأطأ ببصره علي وقال مستفسراً: أنت هنا ؟ ظننت أنك ذهبت إلى المنزل

-(كنت أود أن أستشيط غضبا فيه لكني هدأت) : لا ها أنت تراني هنا لم أعد للمنزل بعد (أردفت وأنا أشدد على الكلمات وأخفي غضبي بابتسامتي) ألم أخبرك أني لي عمل مهم ...

-(هز رأسه واقترب مني) : فعلاً لقد نسيت لوهلة ما أخبرتني ..هل انتظرك ؟

يبرز صوت المصلح العجوز لا إراديا : قد يستغرق تصليحها وقتاً طويلا هل ستنتظرين ؟

-(واصلت اللعنة في قرارة نفسي) : حسنا سأمر غدا لأخذها لذا استعجل في تصليحها لي من فضلك

مشيت خطوتين ثم عدت متداركة نظرت إلى الشاب الأسمر ذاك ثم قلت للمصلح

سأمر مساء ... رمقته في شبه التفاتة فوجده يبتسم ولم أفهم سر ذاك الابتسام ، أكملت طريقي وإلى جانبي زميلي رياض رحنا نسير سويا وصولا إلى محطة حافلات نقل الطلبة وقفت أستند قضيب معدني زين به الجدار خلفي وأنا أرمق حذائي الذي كنت ألعب به ... شعرت بالتعب فجلست في كرسي مخصص للمسافرين وبجانبي جلس رياض ، لم نتكلم طوال مدة سيرنا عن غير الدراسة ولا هو فعل ربما لأنه لم يملك الجرأة لذلك خوفه من ردة فعلي التي أخافها حتى أنا في أحيانا كثيرة ، رفعت بصري إليه فوجدته ينظر إلى مبتسم بادلته الابتسامة ثم أردفت : لا تحدق بي هكذا قد أشتبه بأني أعجبك

-(أنزل رأسه ولم يعلق) : لا ،لا داعي للقلق لن أجرأ

-(ضحكت منه) : ليس عليّ أن أقلق بل أنت من عليك القلق حيال الأمر يا ساذج

-(أجابني بابتسامة)

-وصل الباص به لم يصعد بها فسألته مستغربة : ألن تذهب لمنزلك ؟

رمقني :كلا سأزور جدتي ، أخطط قضاء ليلتي هناك

-إذن سترافقني ، حسنا (أطلقت نفسا)

-ابتسم : ليس حبا في مرافقتك جدتي مريضة

وصلت الحافلة فوقف واضعا يديه في جيبه ومشى صاعدا ، استغربت تصرفه هل عليّ أن احتمله ، أصلا أنا من يحق لي التذمر كأني من طلب مصاحبته جلست بقربه في الحافلة وقبل أن أضع سماعات الموسيقى خاطبته : اسمع أنا لم أطلب مرافقتك لذا لا تتظاهر وكأني أنا من طلبت هذا ، (نظر إلي مطولا وابتسم) لا تبتسم كالمخبول ثم ليس عليّ أن أتحملك ...

قمت بعدها ونيران الغضب تأكلني وقفت إلى حين وصولي إلى محطتي نزلت أمشي وأنا أضع سماعاتي ... نظرت خلفي فوجدته يسير خلفي أسرعت الخطى وصلت إلى عمارة منزلي ، إنها شقة تستأجرها لي مديرة الميتم ربما الآن تدركون لما عمدت على إصلاح ساعتي تلك ، دخلت فمر بي وأنا أغلق الباب ،من الصدف أني أعرف جدته إنها تسكن في الطابق الثالث فوق شقتي.

ليس من السهل العيش وحدك ...على فتاة في مجتمعنا الجزائري المسلم ليس سهلا إطلاقا، عليّ أن أراقب كل هوامش الحرية التي أملكها ليس علي التأخر في الدخول ولا أن أطلب سيارة أجرة إلا خارج الحي، ليس علي أن أكلم أي من بنات حي وليس علي إلقاء التحية إلا على كبار السن، وليس علي مجاملة أي شاب من حيي ،طبعا لأني فتاة تعيش وحدها زواري معرفين بل في حقيقة الأمر ليس لي غير زائرة وحيدة وهي مديرة الميتم ، أعمل بدوام جزئي فأبيع في إحدى المحلات سبيرمركت في مكان قريب من منزلي لذا يتعين علي الخروج .. ليس في شقتي شيء جديد دخلت المطبخ علي غسل الأطباق وفنجان تحجر فيه السكر لأني تركته على الطاولة صباحا ،رتبت الشقة ، تركت أوراق الجامعة كانت في حقيبتي على المكتب غيرت ثيابي ولبست قميص رياضي آخر لأن الأول كانت رائحته مقرفة من طول المسافة التي مشيتها إلى المنزل رفعت بقايا شعري الأسود إلى الأعلى لحسن الحظ شعري بالغ النعومة هذا يوفر لي الاعتناء به كثيرا خرجت وأنا مسرعة أرتدي حقيبتي خارجا ، استوقفني صوت رياض فجأة فعدت إليه وهو يحكم إمساك قبضة الأدراج في آخر درجة من السلالم فخاطبته

- ماذا تريد ؟

-آسف لما بدر مني آنفاً

- حسنا اعتبره خطأ لا يود أن يتكرر

-حسنا ، أعدك .. هل أرافقك للعمل ؟

-(أكملت إقفال الباب): في الواقع كلا ، ليس عليك القيام بهذا مطلقا (التفت له) بل أبدا لا يجوز لي التسكع مع الشباب ، قوانين المجتمع (ابتسمت) وأنت تعرفها طبعا

-لكن أناس الحيي تعرفني وطبيعيتي لذا لا حرج إلا إذا كنت منزعجة (قاطعته مبتسمة)

-لا في إحدى القوانين التي أتلقاها يوميا هنا ، ليس عليك الحديث معي قد أغويك لذا ابق بعيدا عني على الأقل هنا ، ثم من أنت لأبقى منزعجة منك لم أفكر في الأمر أبدا الآن سأستأذن منك

ذهبت على عجلة ولم ألتفت لأرى ردة فعله ، مشيت وصولاً إلى مكان عملي لبست مئزر العمل وبدأت عملي وليس فيه شيء جديد ، إلا أن حصل شيء لم يكن في الحسبان أقبل شبان بمشترياتهما ووضعا بعض قارورات الماء والعصائر المنشطة المخصصة للرياضيين، لم أرفع رأسي لأنظر من هما ،أحدهما كان بضع ضمادا في يده ليحمي يده من التعرق لعله يمارس كمال الأجسام أو البيسبول أو الملاكمة ... أيقضني من انشغالي صوته رفعت بصري من كلمات تسامت لمسمعي ..

-آه هذه أنت إذن ، يا لها من صدفة جيدة زينب

-(لقد كان الشاب الذي التقيته لدى الساعاتي) : ماذا من أنت؟

-(خاطبه صديقه الأشقر) : من هذه إسحاق؟

-إنها صديقتي

-(رفعت حاجباي تذمرا ودهشة) : ماذا؟ صديق من أنت ؟ أتقصدني (رفعت كتفاي أضحك) أنا لا أعرفك البتة هل أنت مجنون؟

-(ابتسم مني) : لا على العكس ،أعرف ما قد يعرفه الأصدقاء عن بعضهم ، اسمك زينب تدرسين في كلية الإعلام ولكِ صديق فض يتقرب منك كلما سنحت الفرصة، وتعملين هنا بدوام جزئي

-(ابتسمت) : أنت فعلاً مجنون ، لا أعرف من أنت أصلا ، اذهب وبدد وقت شخص آخر مثلك ،يملك الوقت لك

-(ابتسم مرة أخرى مني)

-(ابتسم صديقه) : اسمي أسامة فرصة سعيدة زينب (مد يده)

-(اكتفيت بالابتسام) : فرصة سعيدة متشرفة

قبض يده وغادرا مودعا ، أنهيت عملي في ساعة السادسة خرجت من المحل بسرعة اتجه إلى المنزل ، كعادتي كنت أسير بخطوات متسارعة طبعا رغم أنها بدأت روائح الصيف تلوح ،غير أن الناس مازالوا يدخلون بيوتهم في وقت مبكر ،لذا علي الإسراع سمعت صوت تنبيه من سيارة ، تجاهلتها في بادئ الأمر ، أحسست أنها دنت لي لم ألتفت لكنه علا صوت رجولي قائلاً : زينب أريد أن أكلمك

-(التفت بسرعة) لم أرى من ناديني فضوء السيارة أعماني واصل القيادة حتى توقف عند قدمي لقد كان نفس الشاب الذي رأيته ، تأففت منه : هل أنت عاطل عن العمل تبحث عن تسلية ؟

-(ضحك بسخرية) :بالطبع لا ، أنا أصدافك كثيرا ، أتسكنين هنا ؟

-(رمقته وأكملت مسيري)

-لحق بي مرة ثانية وأكثر الثرثرة ، لم أعره انتباهي ، إلا أن طرقني هاجس لكنه إن واصل اللحاق بي سيعرف بيتي والأهم أنه قد يراه أحد الجيران وستطاردني شائعات

-التفت له منزعجة : توقف عن اللحاق بي ألا تخجل من نفسك

-(هز كتفيه يضحك) : لكني أقصد منزل أقاربي في هذا الحي

-التفت لصديقه وأنا غاضبة: صديقك فض ومعتوه

أسرعت بالخطوات دون أن ألتفت فضيعته في إحدى الأروقة أو بالأحرى هذا ما ظننته

مرت الأيام وكثرت الصدف التي يفتعلها للقائي كل مرة فعرفت أنه أحمق لا يملك كرامة ، حللت شخصيته في عديد المرات وكنت أجد أنه يعتبرني تحدّيا لأني لم أعره اهتماما قررت أن أسايره في إحدى الأيام ويا ليتني لم أفعل ، بعد مدة قصيرة

تعرفت عليه قررت أني سأتخلص منه لما أعطيه اسم حسابي على الفايسبوك ، لكن الأمر لم يسر بشكل الذي خططت ، لقد زاد تعلقا بي فصار يتبع نشاطاتي فأجده في أيام المفتوحة التي كنت أزورها والتي تنظمها مختلف الكليات في سوق الذي أشتري منه ماركات ثيابي ، السوبر ماركت الذي أعمل به ، كليتي ، أحيانا كنت أدخر حتى السلام لا أرده له مرت الأيام وتوالت الصدف ، وهاهي آخر أيام الدراسة

أتذكر أنها كانت من أيام الصيف الحارة كنت عائدة كعادتي من الجامعة نزلت من حافلة نقل الطلبة مستعجلة للذهاب للعمل وأنا في نصف شرود أقطع الطريق حوصرت بسيارة مسرعة رأيت نفسي كأني أطير في السماء وصيحات الناس في جزء من الثانية صرخت لكن صرختي قطعت نصف كلماتها من الألم الذي خنقني من ثم لم أعد أعرف ما جرى أتذكر أني شعرت بشيء دافئ تحت شعري أرجح أنها دماء ، تهاويت شعرت أن ثواني ساعات وكل شيء سكن قاومت وقاومت كنت أسمع ضجيج الناس المتزاحمة حولي ، ثم أغمضت الجفون في صمت ..فتحتها لبرهة لم أعرف ماذا حصل لكني كنت في أحضان شخص ما ، لم أعرف من هو ؟ أو متى حملني .. لقد كان حضنه غريب ، إنه دافئ بشكل لا يصدق ، رغم أني أتعرق لابد أنها الحمى لقد كنت في شبه الوعي الأمر أشبه بغيبوبة لكني صاحية منها لم استطع الأنين حتى لكني كنت أسمع أصوات كثيرة حُملت وركزت نظري على بقعة الدم في وسط الطريق لقد كانت دمائي فكرت لبرهة لست أدري إن كان تفكيرا أو هلوسة لقد فكرت في أن الدم كثير ، كثير يجعلني متأكدة أن إصابتي خطيرة جدا

أغمضت جفني مرة أخرى لم أعرف كم مضى من الوقت على ذلك أيقضني صوته ، نبرة غاضبة ، قلقة ، ساخطة ، لم أميز كلماته أبدا ميزت منها كلمة وحيدة :ابتعدوا إنها الكلمة التي رددها كثيرا ثم لم أعد أتحمل ، أظن أن قلبي لم يعد ينبض أبدا لكني كنت أسمع الأصوات ...

-ضغطها انخفض ، قد لن تتحمل الوصول إلى المستشفى

أعطها حقنة الستيرويد

-لقد فعلت هل أضاعف الكمية ؟

-أسرعي

شعرت أني على مشارف الموت ، بدأت أشعر أني لن أعيش ثانية بعد، فجأة عادت أنفاسي بدا أنها معجزة ليس لي فقط بل من كان حولي أيضا أصواتهم ضجرة و مستفسرة وإطلاق نفس وراء نفس ، لحظة هناك شيء دافئ أمسك يدي ، لعله السبب في عودة نفسي ، بدا لي أني سمعت صوتا ما ...نعم أنا أميزه صوت مبحوح يرتجي لقد كان يرتجف من الدموع سمعته يقول : من فضلكما ، أنقذاها مازالت صبية .....

بعد هذا لم أعد أشعر بشيء

إنه صوت دقات ساعة ما ..و سكون عميق ، أشعر أني نصف حية فتحت جفناي بصعوبة بالغة ، أنا في مكان ما ، هذه الستائر البيضاء ليست في منزلي بالتأكيد هناك حركة ما إنها بسيطة حاولتُ تحريك سبابتي لكن باء الأمر بالفشل ، كأني جسمي متصلب ، قاومت لرفع يدي أحسست بوخز بسيط أنزلت بصري في هدوء حقنة وريدية أنا موصولة بالمغذي ، كنت مخذرة بالأحرى أيقنت أني تحت تأثير المخذر أعدت إغماض جفوني اجتاحتني رغبة في النوم فحسب تساءلت عن الوقت حاليا ، إلى أن وقفت على رأسي ممرضة سألتني هل تشعرين أنك بخير؟

-(استجمعت قواي الضائعة وتكلمت بصعوبة) : أظن أني كذلك

-(كانت في رأسي أسئلة كثيرة لكني لم أقوى على سؤالها) : حسنا ، على كل كان حادث خطير نوعا ما أُتي بك البارحة سمعت هذا من زملائي في المناوبة المسائية ، حمداً لله فأنت بخير أما عن الدوار الذي تشعرين به فهذا طبيعي لقد خرجت للتو من عملية وتأثير المخذر سيزول مع الوقت ..(قاطعتها صديقتها تناديها هناء وقد اكتفت بالحرفين الأولين من اسمها هَنا) ذهبت ، حاولت أن أرفع صوتي لأناديها لكني لم استطع راقبتها تبتعد عني ...على الأقل أنا الآن أعرف أني كنت ضحية حادث وكدت أموت وخضعت لعملية ناجحة ، وأعرف كم أنا محظوظة لأنجو كانت في رأسي أفكار عديدة وأسئلة كثيرة عن التفاصيل كانت في رأسي رغم أن جمجمتي متصلبة اشعر بهذا إنها كذلك اكتفيت بذلك القدر من المعلومات أو بالأحرى مجبرة على الاكتفاء بذاك القدر أغمضت عيناي واستسلمت للنوم ثانية وآخر ما فكرت به إنه المعنى أن تكوني عاجزة بأتم معنى الكلمة

فتحت عيناي مرة أخرى لكن كانت الأمور سلسة أكثر لكني أحسست أن رأسي ثقيل، ثقيل جدا ، بقيت برهة لأدرك ما حولي ، الآن بدت الصور واضحة أكثر تذكرت تفاصيل الهلوسة التي اجتاحتني أصوات الناس وكيف وقع لي الحادث ومتى فقط بقى شيء واحد غامض صوت من الذي بكى بجوارها؟ يد من وحضن

الـدافئ حضـن مـن ؟ كانـت علـى وشـك أن أنـادي الممرضـة إلـى أن دخـل وبيـده أغـراض كثيـرة وقـال بصـوت أقـرب إلـى العـالي :آآ لقـد اسـتيقظت هـل أنـادي الطبيـب ؟ لحظـة هـل تشـربين شـيئاً لابـد أنـك عطشـى ...(فـتش عـن قـارورة المـاء المعدنيـة فـي الأكيـاس) كنـت أنظـر شاخصـة بـدا كـأن عقلـي كـان يسـأل هـل كـان أنـت؟ أنـت مـن حملنـي ؟ إذن مـن أحيتنـي لمسـته لـم يكـن إلا ذاك الملاحـق المجنـون ...كنـت فـي شـبه دهشـة ، مـدني المـاء أشـرب وأنـا أنظـر إليـه ، لكنـي لـم أتكلـم ظـلّ ينظـر إلـي برهـة متعجبـا مـن نظراتـي وطبيعيًـا أن تبـدو كنظـرات مخبـول ، خـرج بعـدها لبرهـة لينـادي الطبيـب ، عـاد يخبرنـي أنـه قـادم ، ثـم صـمتنا نحـو خمسـة دقـائق لقـد كـان الأمـر غريبـاً غريبـاً جـدا إنـه موقـف لـم أجـد بمـا أصـفه ، بعـد برهـة قـام مـن مقعـده ولمـس جبهتـي ، أحسسـت برعشـة ، رعشـة خفيفـة بـين الأضـلاع المتورمـة مـن السـقطة ثـم أعقـب قـائلاً: حرارتك يبدو أنها مستقرة ...

كنـت أفكـر فـي حـال تلـك الرعشـة وسـببها أكثـر مـن تفكيـري فـي الموقـف فـي حـدّ ذاتـه بـادرت بقـول كلمـات متسـارعة وتخـرج مـن شـفاهي الجافـة بصـعوبة كبيـرة : هـل كنـت أنت ؟ أنت من اتصل بالإسعاف وحملني ؟

-(أطلـق نفسـا ، خفـض رأسـه وابتسـم) : الحمـد لله أنهـا تكلمـت ظننـت أنـك لـن تتكلمـي أبـدا ، لقـد صـادف مـروري مـن موقـع الحـادث فحملتـك إلـى سـيارة الإسـعاف ،(مازحـا) لكنك أدهشتني ذاكرتك رهيبة جدا

-(ابتسـمت) : أنـا بخيـر ، لقـد شـعرت بإحسـاس رهيـب لمـا لمسـتني (تأملـت السـرير أفكر ثم تفطنت) حسنا على كل حال ملاحقتك لي قد جنت ثمارها على الأقل

-(نظـر مطـولا وقـال ممازحـاً) : كـدت أصـدق الـدراما التـي قلتهـا قبـل هـذا ، لكـن الأمـر مؤسـف فتأملـت أنـك قـد تفقـدين ذاكرتـك ألا يمكـن أن تكـوني دراميـة أكثـر كـدموع شـكر مثلاً

-(ابتسـمت وفـي أعمـاقي كنـت سـأفعل نفـس الشـيء) : لقـد أقلّتنـي سـيارة الإسـعاف لـم تحملني على ظهرك طوال الطريق

-(ضحك حتى دمعت عيناه)

دخـل الطبيـب وفحصـني لبرهـة وقـال أن آلام سـتعاود الظهـور لأن المخـدر لـم يفقـد كـل فاعليتـه بعـد ، سـألته عـن ماهيـة إصـابتي والعمليـة التـي خضـعت لهـا ، فأجـابني أنهـا عمليـة بسـيطة لشـفط الـدماء تفاديـا للجلطـة الدماغيـة أو النزيـف الـداخلي ...أكملـت الحـديث معـه وكـان إسـحاق منـدهش مـن فطنتـي وأسـئلتي ودّعنـي الطبيـب بعـد أن

نصحني بالراحة لأتمكن من مغادرة المستشفى بسرعة حاولت النهوض فسألني وهو يضع الوسائد خلف ظهري لأستند عليها

-زينب أثناء دخولك المستشفى بحثت عن أي أقارب يمكن أن أطمئنهم على صحتك لكني لم أجد أي سبيل (ضحك يهز رأسه) في الحقيقة أنا سيئ التواصل في مثل هذه الأمور

-(شعرت بحرج كبير لم أعرف لما ؟ رغم أني عشت هكذا منذ زمن وسألت كثيرا لكني فعلا لم أجد ما أقول كبحت الدموع علقتها في جفني بصعوبة بالغة) : يؤسفني أن أخيب ظنك لكن يبدو أن في هذه الحياة لا أحد يقلق علي غيرك طبعاً هذا إن صدقت أنك كذلك(ابتسمت بمرارة ابتسامة قاهرة)

صمت برهة ، شعرت أنه كان عاجزاً عن سؤالي وعاجز عن الصمت علق ممازحا

-(ابتسم حيرة): توقفي عن الدراما ، بالتأكيد سيخشى عنك شخص ما ..(قاطعته والدموع التي كبحتها سالت ساخنة جدا) : أنا مجهولة النسب ...عشت في الميتم لا أعرف غير مديرة الميتم التي تعطف علي لكنها في رحلة عمل ، لا أبوين لي هل سأثير شفقتك أو أنك ستندم لمساعدتي

-(صمت وهو يخفض رأسه ، تمالك نفسه ثم مد يده ومررها على شيء من شعري الظاهر من الضمادة): هذا لا يغير شيء أبداً ... حسنا أيتها المدللة هل أنت جائعة ؟

-(ابتسمت من رده من مرونته التي لم أتوقعها ،مسحت دموعي وأكملت على نهجه) : لست جائعة أشعر أني أحسن هكذا ...

بعد الحادثة بيومين خرجت من المستشفى وعدت إلى الشقة ، لقد ساعدني الجميع من جيران وزملاء ولم أترك وحدي أبدا إنها إحدى سمات المجتمع الجزائري ، بعد مدة عادت المياه إلى مجاريها ، عاد كل شيء إلى حاله غير شيء واحد علاقتي مع إسحاق بدت مشاعري متغيرة صار كثيرا ما يزورني بالعمل أو الكلية ، طبعا ما عدت أمانع في هذا ، بل صرت أستلطفه ، أذكر أنه بعد مدة من إنهاء جامعتي ، تقدمت إلى إحدى مسابقات التوظيف في سلك الشرطة ، يبدو الأمر غريبا ، فمهنة المحققة كانت حلمي بعد الصحافة ، نجحت وتمكنت من دخول أكاديمية الشرطة تمهيداً لبدأ العمل ، كان الإفراج عن النتائج أهم حدث وأجمل

أسبوع عشته ، أذكر أني سعدت كثيرا إلى أن دعاني إسحاق لحفلة زواج أخته لقد كان حفل فخم في إحدى الفنادق ،لقد قال أنه سيعرفني على أمه ، سعدت بالأمر

رحت أستعد وأبحث عن ما ألبسه ،كنت متحمسة كانت المرة الأولى التي أدعى إلى حفل ضخم،أقر أنني في الآونة الأخيرة جربت أمور كثيرة للمرة الأولى تماما كخفقان قلبي لما أرى إسحاق فيضرب صدري كالطير الذبيح المرتجف ، وهذا لا يعني شيئا ستدرك مع نهاية هذه القصة ... حسنا طفت كل المحلات لأشتري فستان ما استغرق الأمر وقتاً لم أجد ما يوافق معاييري ، أخيراً استقر رأيي على فستان روماني الشكل بدا مبهر اختره أسود غالبا ما أفضل هذا اللون في أي شيء ..أثناء خروجي بخطوات متسارعة واشتريت كل ما يلزم لطلة فاتنة في نهاية ككل امرأة أعلم أن هذا سيأخذ الكثير من الوقت لذا اشتريت فطور جاهز ،بعد ذلك خرجت أحمل حاجيات كثيرة استغرق تجهيز نفسي مدّة كانت أول مرة في حياتي ابذل جهدا لأثير إعجاب شخص ما وآخرها ولا تسألني لما ؟ بعد حمام ساخن وتجفيف شعري، جهزت نفسي ولم يبقى إلا تثبيت ماكياجي ، أردت أن أكون محور ونقطة ضوء في ذاك الحفل ... تأملت طلتي في المرآة وتذكرت أنه كثيرا ما يقول أني أبدو فاتنة بلا نظّرات ، فتركتها على الطاولة وفي تلك اللحظة تماما تخليت عن كرامتي ،وضعت هاتفي في الحقيبة ورفعت شعري إلى الأعلى ولبست ملابسي العادية باستثناء ماكياجي كنت أبدو عادية نظرت في أرجاء للمنزل نظرة سريعة خرجت ونظراتي وحدها في ظلام الغرفة وأنا جدُّ سعيدة بما أفعل وما أنا مقبلة عليه رغم أن الزواج والارتباط لم يكن ضمن مخططاتي إلا أني سعيدة بعلاقتي معه ما إن صعدت سيارة الأجرة حتى اتصلت به لأؤكد موعد ، كنت أحكم شدّ بطاقة الدعوة لكني ربما أردت سماع صوته فحسب ، بعد طول المسافة التي قضيتها وأنا أتخيل حواري مع أمه لقد جهزت أجوبة لكل أسئلتها ...سار بي الوقت وها أنا أمام مدخل الفندق وصلت لباب القاعة والبوابان تفقدوا بطاقة دعوتي ...

دخلت وعصافير السعادة أراها ترقص أمامي ،أسرعت إلى غرفة لأبدّل ملابسي ، انتهيت بعد مدة لا بأس بها مشيت بصعوبة بالكعب العالي كنت أبدو كالبلهاء ،أخذت تحوم حولي النظرات وبالفعل كنت نقطة ضوء في الحفل تماماً مثلما توقعت ، رحت أذهب بصري حائماً يبحث عن أم إسحاق جلست إلى الطاولة بدوت أتبع خطوات ارستقراطية لم أتعوّد عليها ، بدأت أشعر بالضجر ، خرجت العروس ترتدي "الكراكو العاصمي *[1]" جعل لها هيبة المرأة صفقت رفقة

*الكراكو العاصمي هو لباس تقليدي للعاصمة الجزائرية تلبسه العرائس والنساء في الحفلات

1

الضيوف بحرارة كنت جد متحمسة بدّت أخته آية في الجمال تأملتها وأنا أهز رأسي على أنغام الشعبي الجزائري الأصيل ، أيقضني من أحلام اليقظة صوت اهتزاز هاتفي أو بالأحرى لم أميز صوت الرنة لولا الاهتزاز لقد كان رسالة نصية سألني إسحاق إذا وصلت بها ، أجبته بأني في القاعة فألح عليّ بالخروج إلى الحديقة الخلفية خرجت بعدما أعدت وضع أحمر الشفاه ، وكان النسيم يعبث بشعري المنسدل ، وصلت إلى الباب لكني كنت سأتعثر فالثوب الطويل كنت أدوسه ، رفعت بصري فوجدته شاخص ينظر لي ، بدا غير مصدق ما رأت عينيه طبعا تعودت أن أكون في الأضواء وأن أكون مصدر الإعجاب دائما سعدت كثيرا لأن جهدي لأثير إعجابه لم يذهب هباء تقدمت نحوه أمسك ثوبي وهاتفي في يدي ، وصلت إليه تأملت قدمي التي بدت أنها على وشك أن تلامس حذاءه رفعت يدي أقول : مرحباً ، هاي

-(هز رأسه وهو يستيقظ) : واصل النظر إليّ وقال في هدوء : أنت رائعة : عيناك فاتنتان

-(ابتسمت أخفض رأسي ، بدوت أكثر أنوثة اليوم لكني لم أرد المبالغة)، أعاد رفع رأسي وهو يلامس ذقني قائلا: أوّد أن أراك تبتسمين

أبعدّت يده عني وابتعدت قليلاً أخذت أبعد شعري عن عيني وعلقّت قائلة : أعلم أني جميلة توقف عن العبث معي

-(ابتسم مني كالمعتاد): كعادتك كائن لا يصلح للرومانسية

-(ضحكت من كلماته) ، بعد مدّة أتت امرأة كانت في منتصف الأربعينات بدت في غالية اللطف ابتسمت معي ثم خاطبته : إسحاق ، بني من هذه ؟

-(تلعثم قليلا ثم قال): إنها صديقة أمي

-ابتسمت بهدوء: حسنا لا تطّل الوقوف من غير اللائق أن يراك الضيوف

ها قد رأيت أمه أخيرا لكن استغربت لما لم يعرفها علي ، فكرت في باطني أنه قد خجل منها وأنه يحتاج للوقت الذي قررت أن أمنحه إياه ، قاداني بعدها إلى مكان مختفي أكثر سرنا معا ، اهتزت مسامعنا إلى أغنية كاظم الساهر عيد العشاق التي هزت أرجاء القاعة ، دندن معها وهو يردد :وأنا معتقل ما بين عينيك ولا أطلب يا سيدتي أن أتحرر ، ضحكت منه لكن الصدف كانت ترافقه في كل خطوة خطاها...

تكلمنا قليلا وكان يردد في كل لحظة شعره الذي لا ينتهي ، جلسنا بعد السير مدة ، نظر إلي بعدها بإمعان

-بصوت خافت : أشعر منذ مدة أني أتمنى لقاك في كل ثانية ومفتون بمظهرك وسعيد بجانبك وحساس بلمستك ومتخيل لروعتك فهل أنت من اختارك قلبي؟ ، زينب أنا أحبك يا امرأة

-(شعرت أن قلبي كان سيتوقف من الخفقان في النهاية هذا كثير عليه) : شرودك وقلة حليتك يزعجني لكني سعيدة باهتمامك أو دعنا نقول بحبك هذا

ابتسم ولم يقل شيئاً ظل يتأملني فحسب ، نهضت مغادرة ، استوقفني : لا تنس ما قلته للتو ..

-(ابتسمت بزيف): قد أفعل (التفتُ له) لن أضمن لكْ

قام بعدها يمسك يدي تسارعت دقات قلبي ماذا سيفعل ؟ دنا مني واقتربت شفاهه من يدي ..البارد من نسيم الصيف وشفاهه الدافئة وقبّل يدي حاولت أن أستوعب ما جرى في تلك الثانية لقد اتسعت عيناي دهشة وتسمرت عضلاتي ، سحبت يدي بسرعة ضحك يهزئ من منظري وقال: حاولي أن تنسي ما قمت به للتو ، دفعته وصرخت به : كم أنت مقرف ، ذهبت أكبح ابتسامتي

وهو يردد خلفي : بما نعتتني للتو ؟

هربت ألّج القاعة وأوصالي ترتجف كنت ألح أني سأعاقبه لاحقاً ، وفي ذات الوقت شعرت أنه قد أحكم شباكه عليّ بالفعل أدركت أني أحبّه وما أفعله أذي أهرب من شعوري ...

دخلت قاعة الحفل وأنا أضحك وحدي ، ثم أدركت أني بالغت وبدوت كالمجنون لما رأيت نسوة ينظرن إلي ويتبادلن الهمسات ،بعد أقل من نصف ساعة أتت بعض النادلات الشابات بزي موحد ووضعن أمامي عصائر وصحنين من الحلوة لقد كانت فوق حاجتي بالفعل ، ابتسمت معهن ورحت أتذوقها بأناقة بالغة ،كانت تقابلني مرآة فطاولتي كانت عند المدخل كنت أسترق النظر إليها ، لأرى نفسي كيف أبدو لما أقضم الحلوى ، كانت المرة الثالثة أو الرابعة التي أرفع فيها رأسي أنظر إلى المرآة ارتسمت صورته وهو ينظر إلي ويضحك من منظري... لقد كان الأمر محرجا جداً أنزلت رأسي وأنا أعض شفتاي حسرة على الموقف ، رنّ هاتفي معلنا على وصول رسالة لي ، أيقنت أنها منه ترددت في فتحها ، فوجئت بما كتبه فقد كانت أبيات شعرية لشاعرة أحبها اسمها دلال البارود قرأتها وأنا

أبتسم فقد سرّني أنه مازال يذكر منشوراتي عن قصائدها قرأت أبياتها وصوته يجلل في أذني : أتى بالشاي واستفسر **أتكفي قطعة السكر **وكيف أجيب مشكلة***سبتني روعة المنظر **حبيب يمسك الحلوى ترى من فيهم السكر ..

رفعت رأسي أنظر إليه فلم أجده ، كان قد غادر ، لم أجد بما أجيب رسالته ، فاكتفيت بقراءتها فحسب ، وأنا منغمسة في الأبيات جلس شخص ما رفعت عيناي فتعجبت من فتاة تبدو أنها لا تكبرني كثيرا ، ألقت التحية فرددتها بأناقة كانت كلماتها بالفرنسية منمقة ولحسن حظي أني كنت أجيدها أفضل منها ، علمت بعدها أن فضولها جاء بها لتسأل عن شخصي أخبرتها أني صديقة إسحاق ، علقت في آخر كلامها وهي تقوم ذاهبة : حسنا زينب سنلتقي قريباً إذن على الأغلب بعد أسبوعين فإسحاق سيدعو بالتأكيد ياسمين ابنة خالته الوحيدة لحفل زفافه (قصدت نفسها) ، رفعت ثوبها ذاهبة أمّا أنا فقد كنت أحاول فهم ما قالته ، يبدو جلياً كم هو واضح لكن لم أستوعب ،للتو قالت أن حفل زفاف حبيبي بعد أسبوعين وأنا في حفل زفاف أخته كما هو مقرر ليعرفني بأمه ، في تلك اللحظة شعرت أن القاعة تدور بي وضجيج الأفكار لا يجعلني أسمع شيئا صممت أذاني بكلتا يدي وجفوني المثقلة بالدموع لكن عبراتي تأبى السقوط ، كنت شبه مخنوقة أحاول أن أتنفس ، بل قبل هذا حاولت أن لا أصدق لكن لعنة الكلمات لعنة صوتها لم تمضي لم تبتعد ، شعرت أني سأسقط أرضاً أحكمت شد غطاء الطاولة وأنا أخفض رأسي وأرى دموعي تسقط على ثوبي وتتهاوي وتختلط بلونه الأسوّد وتنهار تنهار بعيدا عني بدوت مثيرة للشفقة ويائسة وكئيبة

ابتسمت في هدوء قاتل وقلبي يهتز ويهز صدري بقوة أول ما تساءلت عليه لما فعل هذا إذا كان سيتزوج ، هل كان عليه جعلي أحبه ؟ لم أشعر ما يجري حولي ولم أسمع أصوات من تجمع حولي إلا بعد أن لمستني ياسمين : رفعت بصري ، فوجدت نصف القاعة تجمعت حولي ، مسحت دموعي خارة القوى وطمأنتهم أني بخير رحلوا تباعا وأنا أكبح دموعي بصعوبة جارفة ، وابتسم ابتعد الجميع ، فتواترت الدموع من جديد ، جلست ياسمين بقربي هل أنت بخير ؟ أو بالأحرى هل ستكونين كذلك ؟

-(ابتسمت وملوحة الدموع في فمي): حسنا ما رأيك أنت ؟ (أعدت مسحها مرة أخرى): أنا بخير وسأكون كذلك

بعد مدة رحلت مبتعدة كنت أشعر أني أرغب بكتف أبكي عليه بعمق لكني وفرّت الأمر لنفسي فحسب ، لم أرّد أن أسأله عن الأمر كنت أشعر بالخوف الشديد لما أنا مقبلة عليه رغم إدراكي أنه لن يكون أكثر فضاعة من هذا ، حملت

هاتفي أكتب رسالة له ، وجدت أبياته الأخيرة بكيت مرة أخرى وبأصابعي المرتعشة كتبت "لاقيني عند المدخل " مشيت بعدها أتظاهر أني قوية لكن في الواقع كنت أتمايل من قواتي التي خارت كسارية شراع نجت وحدها في سفينة واجهت عاصفة ، طبعاً الأمر كان قاسيا أن يموت قلبك بسبب الشيء الذي أراده وراهن عليه هو بشدة ، مشيت ووقفت عند المدخل ، بعد أقل من دقيقة لمحته قادم من بعيد في داخلي تساءلت لما جاء بسرعة على الأقل تأخر ثواني إضافية ، لأني بشدة في داخلي لم أرد المواجهة لكني عاندت ، عاندت لأبقى ثابتة لأمحو انهزاميتي منذ بزوغ فجر هذا اليوم ، كنت أتأمل العفر الملتصق بين البلاطات المتراصة ، وهو يقف منذ برهة رفعت رأسي في تهاوي وابتسمت لكنه أدرّك أني كنت أبكي طبعاً لم أرد هذا لكن حمرة جفوني تفضحني حسناً لم أكن أريد أياً مما حصل اليوم

أطلقت نفساً وتجنبت النظر إليه وأنا أتحدث ربما جال في خاطره لما كنت في تلك الحالة ،خاطبته وصوتي مبحوح من الدموع التي علقتها داخلي فترة من الزمن :

-هل صحيح أنك ستتزوج ؟

-(صمت لم يجبني بحرف ،واصل الصمت لدقيقة أو اثنتين لم أعد أدرك كم مر من الوقت ، تلك الحال وصمته منحني قوة لأرفع بصري وأثبته فيه ، لكنه في المقابل بدا مهزوما يصرف نظره عني ، هناك وفي تلك اللحظة شعرت بالغضب ، شعرت بالقوة بقاياها ضائعة ، صرخت مرة أخرى) :تكلّم أيها الأحمق أَضاعتْ قوتك ، جبروتك تكلم قلْ أي شيء (خارت القوى مرة أخرى وقلت مهزومة): من الخائف فينا أخبرني ، لم يعد هناك ما نخسره ،(صحت مرة أخرى وأنا أمسك ذرعاه وهو مستسلم لي ولصراخي) لقد عُذت قلبي عشرين سنة من الحب بسبب أشباه الرجال أمثالك ،مثل أبي الذي تخلى عن أمي عن الحب الذي يسمونه حبا ويجعلني أعيش هكذا ...أعيش بلا سند بسببكم يا حمقى ،حثالة ...(لم أعدْ أدرك ما تلفظت به ، انبهرت للكلامي السوقي الذي جاء على لساني ، كلام حبسته طويلا في صدري فكان كالمتجشئ من الطعام فصار نفَسُه كريها كصدى تلك الكلمات) لكني فقدت معها قوتي حاول الكلام لكنه قطع نصفه

-حسنا لا تهتم لن أجبرك على الكلام (مشيت نصف خطوة استوقفني ونضجت شفاهه بكلمة أخيراً قال بصوت مرتفع) : نعم حددوا لي موعد زفاف ، لكن الأمر ليس مهم صدقيني (هز رأسه يرتجي)

-(ضحكت بسخرية وبقهقهة مرتفعة) : طبعا ليس مهم ، أن تواعد فتاة وحيدة قبل أسبوعين من زواجك وما المهم في الأمر ،أنا طبعاً لا ، قبّلني وقت ما تشاء وواعدني وقت ما تشاء ،(هززت كتفاي) هل تظنني عشيقتك أيها المنحرف الأحمق

تهاديت كنت سأهوي للسقوط لكني تظاهرت بالقوة : ماذا كلماتك المأتمة هل انتهيت منها؟ (طويت زاوية اليسرى من شفاهي وأعلنت آخر ابتسامة متمردة) هاه تبدو مثيراً للشفقة

-(تمنى لو ساعدته أكثر لكنه كان يدري أني مستاءة وغاضبة ومنكسرة لدرجة السقوط): زينب ...من فضلك دعيني أشرح لك وأمهليني بعض الوقت

-(شعرت كأن بركان مدني بموجة غضب من أديم الأرض ، جعل حرارة وجهي تغلي في تلك الأمسية الصيفية): هل تظنني خرقاء ؟ كم تريد من الوقت أسبوع ، أسبوعين ؟ طبعاً في هذه الحالة سأضيع حفل زفافك ، الجلي أنك إمعة ، لا تحاول أن تكون رجلاً في آخر لحظات التهاوي ، أحمق

-(شعر أنه يستحق على الأقل كان يمكن أن أسمع موضوع زفافه من أخرى بطريقة أكثر لباقة ليس من حديث نسوة في حفل زفاف أخته ، لا أعرف ما اللبق في الأمر ، تهاوى يستند الجدار مقرا بهزائمه)

-(ابتسمت هذه المرة وأنا أمسح دموعي) : أشفق على زوجتك ، على كل لم أرفع سقف توقعاتي كثيراً (أطلقت نفساً) حاولت المغادرة لكنه استوقفني يمسك ذراعي ، سحبته بقوة والتفت له : لن أكون درامية يا هذا ، لن تسمع مني عبارات متملقة كوداعاً أو أتمنى لك السعادة بل أنا أتمنى أن تشقى في حياتك وأن تكابد كل أنواع الهموم ، وأن تموت وحيداً في زاوية مظلمة ما ، أن ينهكك البحث عن يمد له يدك ولا تجد أحد أنت تعرف أني لا أبيع وقتي لذا اختصر

-(تأفف وهو يرتجي آخر أمل في الحياة ، تسمرت قدماه وكأنه يناجي آخر سبيل للنجاة): أعرفك أعرف أنك مثابرة ، قلت دائما أنك ستدافعين عن حلمك ؟ هل تخليت عني ؟

-(تحسست شعري ومثّلت ما أقول كممثلة بلهاء ابتلعت نصف كلمات الحوار): متى قلت أن حلمي رجل ... خصوصاً أنه أنت

هوى جاثيا أما أنا مشيت أرفع رأسي ونسيم الليلة الصيفية جفف دموعي وأنا أحاول أن أختال لكني في الحقيقة مشيت مهزومة وفي صدري أردد نصف

الكلمـات الباقيـة "لـم أقـل أن حلمـي رجـل غيـرك قـد كنـت أنـت أيهـا الأحمـق " لكـن لكبريائي لم أقوى على إخراجها لأني خرقت قانون الكبرياء اليوم بما فيه الكفاية

غادرتـه وأنـا ألعـن الحـب ألعـن الحـظ وأنـا أتأسـف لنظرّتـي هـل تعلـم لمـا لأنـي فـي اللحظة التي تركتها فيها على الطاولة تخليت عن كرامتي ....

و ما الحب عندي إلا يوم من الانهزام....

أنت من ترين نفسك كئيبة أنت من تخلى عنك بعد سنوات من الحب و العطاء ...

صدقيني أنت أقوى مما تظنين أقوى بكثير

ستضحكين على ألمك هذا غدا ...

المؤلفة : هاجر بسام

هاجر بسام ثابوت الإحساس

تابوت الإحساس ...

1-الموت الأول :

بين الجبال التي تحتضن غابات الصنوبر والوديان الصغيرة التي تختلج الحقول في خجل لتتغلغل بين بنات الأرض من المزروعات ، وتلك التربة الرطبة التي تعانق أرجل المزارعين في حنان ولين وبين رائحة التبن ورائحة أوراق الزعتر البري التي تدغدغ أنف من يقف على مشارف تلك القرية التي تُحتضن بين أحراش الجبال ترفع هامتها التي تختلط بالسحاب المار كأنه يمر ليقي التحية ،وفي تلك المساحات التي تفصلها منحدرات رسمتها الأرجل والدواب التي تمر كل يوم .فتردم بأكوام الثلج شتاء وبحبات الغبار الكثيف صيفا وبالطين الجاف ربيعاً...و بين أشجار الزيتون التي يفر النوم تحت ظلها ، في تلك الحشود من النعاج التي لا يمكنها عدّها والماعز التي تتسلق الأشجار باحثة عن الأوراق الطرية ، حشود يقف على رأسها شاب متسلح بغضن من الزيتون ليوجه طريقها فيتبعون صوت لحن الغصن الذي يلوّح في الهواء إلى المكان الصحيح . .. هنا في أعالي المدية ولاية في هضاب الجزائر العظيمة ، أين تمر النسوة يملئن دلاء الماء من منبع قريب ، ويقف شباب من القرية بين أعشاب الديس*[2] التي تغطي أجسادهم يسترقون النظر إلى بنات القرية غير آبهين بأشواك السدر الملتصقة بجلودهم السمراء بقسوة ،ومن بين تلك الشابات التي مرت في صبيحة يوم باكرا تمشي في رزانة ووقار وريده، شابة في أوائل عمرها تبلغ ثمانية عشر سنة كاملة ،نحيلة وعينيها زرقوتان وخديها كأن شقائق النعمان تتغذى منها احتضن شعرها خمار صغير تجلى منه شيء من شعرها البني وتلبس فستان تظهر منه عظام خصرها النحيل ، فستان رفعته بحزام مطرز يشبه فوطة القبائل [3] ، لم تكن وريده آية في الجمال بالنسبة لبنات قريتها المنسية ،حسنا هذا لأن معيار الجمال لم يكن يتوفر لديها فكانت البنات الجميلات هن اللاتي يملكن جسدا ممتلئ فحسب، إنها التسعينات فهي فترة مضت على كل حال ، قهقهت وريده تحتضن سلة من السلال الدوّم التي صنعتها والتي كانت تتباهى بها أمام عائشة إحدى صديقاتها أو بالأحرى صديقتها الوحيدة حملت في سلتها بعض حبات التين المجفف من السطح ، وهو مكان يجففون فيه ثمار الكروم أو الحبوب الجافة لموسم الشتاء أو تعلق فيه

---

[2] : نوع من الأعشاب الطويلة يصنعون منه السلال

[3] : قطعة من القماش العريض يلف خصر النساء فوق الفساتين لونه غالباً أحمر وأصفر

شرائح اللحم المملح لتسمى "قديد" حسب أهل المنطقة ،والتي تطبخ شتاء في مختلف أنواع الحساء الساخن، مرت وريده لمنزلها أين يفتح الباب دون مقبض ، وطالما كان فتحه يعلن دخول والجه بصرير من صدئ أجزائه، وضعت السلة على المائدة التي ترقص من وضعها على الأرضية غير المستوية التي تملأها الحفر، أمعنت النظر في المرآة المصدئة والتي يملئ الغبار شقوقها وراحت تعدّل وضع خمارها ، إن الحياة هنا تُعاش على بساطتها ، أين يسكن الجميع بيوت الطوب ولا فرق بين واحد والآخر، أين يؤكلون نفس الأكل مما تنتجه أرضهم وما يذبحون من دوابهم ، ويلبس الرجال ما تحيك نسوتهم في المغزل لشهور عديدة من"برنوس"وقشابية أصيلة"[4] فأيام فالشتاء البارد لا تقاومه إلا الملابس الثقيلة ، هنا الأثاث يتشابه أين تجد الموائد الخشبية القصيرة المستديرة التي تصنع يدويا ،والصناديق الكبيرة بدون أقفال والموقد في ركن البيت ،والكؤوس والإبريق الأزرق الذي تجده في كل البيوت والأسلحة القديمة ، الحصيرة الممتدة ، كل شيء هنا ديكور معتم الزرابي المزخرفة تعلق على الجدران لا مزهرية ولا أزهار ، فهنا الطبيعة تعيش حالها ونفسها ، إنها التسعينات فالشرعية الثورية في الجزائر لا تزال كما لا تزال ألحان الانتصار تغنى في الأعراس بألسنة النسوة، اللاتي دائما يعتبرن أنفسهن امتدادا لهذا الديكور الطبيعي وطريقة العيش المبتذلة ، أين تعيش هذه القرية في طيات الجبال إنه الزمن الجميل، يجتمع أفراد العائلة على المذياع العتيق الذي يشبه صوته صوت عجوز أضنتها الحياة ، هنا أيام الربيع أين اكتست الطبيعة حلتها الجميلة ... عادت وريده للتو .. هاهو يلج أباها يملئ صوته الأجش المنزل الصغير ، عاد منهكا من السوق الأسبوعي ،وضع قفة الدوّم أمامه ليس على وريده لمسها إلى حين عودة أمها فهو وقت رجوعها من الحقل فكانت تتفقد الدواب فهناك بقرة وضعت عجل اليوم وعليها تفقدها ، عادت وأنفاسها تعزف سنفونية التعب من المشي ، دخلت بسلام مقتضب وأسرعت تضع المائدة أمام زوجها وتتفقد فقته الحافلة بما أوصته منذ مدة ..

أخيرا نضجت شفاهه القاسية التي تكسوها قشرة قاسية من البرد الشديد بصوته المبحوح الأجش : أريدك في موضوع مهم (رفع بصره نحو وريده ، هنا كان عليها الإدراك أنه الوقت للمغادرة أو الانشغال بشيء آخر) استأذنت ذاهبة

-(غمم وهمهم) : التقيت اليوم في سوق الجمعة بصالح إنه نسيب شيخ مسجدنا ...

---

[4] : نوع من الملابس التي يلبسها الرجال تحاك يدوياً بوبر الإبل أو الحيوانات الأخرى

-(قالت دون عناء المبالاة وهي تتقد ما اشتراه من فساتين): نعم ، هل تحسنت صحته لقد سمعت أنه كان مريض ؟

-(أطلق نفسا يتذمر على عدم مبالاتها) : لقد بدا أنه بخير ، على كل لقد خطبني في وريده يريدها لابنه

-(هنا ابتسمت الأم وهي تضع ما في يدها وتصغي باهتمام) : هل علينا القبول بعرضه ؟

-(تناول تين من أمامه) : طبعا لقد صارت في سن الزواج وهو مؤذن يشهد الجميع بأخلاقه (قام ينفض يديه وهو يضع يمناه خلف ظهره قال ذاهبا): سيزروننا نهاية الأسبوع المقبل جهزيها

-قامت تبتسم في حبور

طبعا لم يكن رأي وريده مهما أبدا ، لقد أقر الزواج وانتهى، استقبلت وريده الخبر على أن الشيء الذي خافت منه بشدة قد وصل ..حسبها كان هذا الموت الأول لها ....

إحساس وهمس: لم يتبق الكثير لموعد زفافها ، داهمها شعور خاطف لتأمل حالها ،داخلها حزن مكتوم مدفون بين أضلعها الهزيلة لا تملك حقاً في أن تظهره ولا تمسح تعفن الآلام بدموعها أبداً ، حتى صديقتها الوحيدة خسرتها لم تعد تريد التجول معها أو بالأحرى هذا ما كانت تظنه بكونها تملك صديقة ، أصبحت هذه النفس تهينها أصبحت تصغرّها كل يوم ، ليس عليها الكلام وإلا ستصبح جاحدة ...مسحت دموعها التي سقطت براحة يدها ونزلت الهضبة نحو نبع الماء تحتضن جرتها ، رأت لويزة تملئ جرّتها هي الأخرى جلست دون أن تعلن وجدوها بأي حرف ، نزلت تملئ جرتها في أناة وبطء لم تقل أي منهما للأخرى شيء فرشت لويزة نظرها في وريده من أعلى رأسها المطأطأ إلى أخمص قدميها اللتين ظهرت من حذائها الرث ، أيقظها من شرودها ماء بارد بلل حواشي فستانها ، لعنته وهي تحمل تعصره في تذمر، هنا رفعت وريده رأسها وأطلقت نفساً ، أخرجت جرتها من الماء الذي غمرتها به وراحت تحتضن كلتا ركبتيها وشخصت في صورتها المرسومة في المياه

قالت لويزة في هدوء وهي تنزل رأسها : ما بك أختي وريده هل حدث شيء ما ؟

-ردت دون عناء المبالاة بما تقول : لا شيء ، لم يحدث شيء البتة

-قالت وشيء من الخوف تسرب إلى قلبها أن الأمر يدعو للقلق : عيناك متورمتان من الدمع كنت تبكين ؟

-(أطلقت نفسا): هل يبدو علي ؟ ما عادت الدموع تغسل شوائب الحزن في أضلعي المتورمة من السقطات الواحدة تلو الأخرى

-(ألقت اهتمامها لما تسمعه): ما ذا ينقصك يا وريده أوولست ستتزوجين بعد أسبوع أو أقل (قاطعتها) : ثلاث ...ثلاث أيام ، قلبي يأبى عالمي مختلف عن الفضاء الذين تعيشونه هل تعلمين ما الكابوس الذي كنت أخشاه دوما أن أعيش مثلكم لا شيء يتغير المرأة هنا تكبر وتتعلم وتتزوج بعد ذلك تربي أولادها وتزوجهم ما هو الإنجاز في كل هذا ؟ (أطلقت نفسا) كنت أود على الأقل أن أتعلم كيف أحلم ؟ ما هو الحلم ؟ (رفعت رأسها)

- أتصدقين أوهام عقلك عن أي حلم تتحدثين ؟ الأفضل أن تعيشي واقعك؟

-(ضحكت بسخرية) : طبعا لا يمكن أن تفهمي هذه الأوهام الفضاء الذي نعيش فيه مختلف ، مختلف جدا لدرجة أني لا أستطيع البوح بهذه الأوهام أمامكم .... أتعرفين بما أفكر في غالب الأوقات ، أفكر في أن أغير كل شيء أغير القرية من الصميم وأغير النفوس في الأعماق وأغير جوهر الأمور (ضربت على صدرها بعنف) : هنا تسكن هذه الرغبة العميقة والشديدة لكنها لا تقوى على قهر الظروف وتشح في منحي القوة لفعلها ، إنها نزوة غريبة تسكنني كل ثانية كأنها شيء متوحش

-الوحش الوحيد الذي يسكنك هو شيطان القنوط ، أطرديه قبل أن يعشش فيك ، اسمعي مني ليس للمرأة هنا غير بيتها وزوجها فاحرصي على نعمتك هذه ... هذا معنى حياة المرأة

-أي بيت ، أي حياة إنها قفص محكم الإغلاق قضبانه متينة جدا لدرجة الانصهار داخله كجهنم ، لا منافذ منه ولا أبواب لا مخرج منه إلى على اللحد أو تحت الكفن ،الناس هنا لا يجدون إلا الرياء ، أقوالهم يطلقونها في هباء يبحثون عن عيوب بعضهم في غباء وتلك الألسنة لا تتكلم إلا عن قصص الخداع لتسمى دبلوماسية ،ذكاء اجتماعي وشفاه لا تنزلق منها سوى المغلطات أتردينني أن أعيش هكذا ؟

-(في دهشة مما سمعته) : لو لم تسمع أذناي هذا الكلام لكنت سأكذّب أعتقد أنك في ثوران العقل أو في أول أمر من الجنون

-(ابتسمت بازدراء): بل ثوران قلب مدمي على الآلام ، ثوران عقل راجح عن التقاليد والأعراف (أطلقت نفسا ورفعت رأسها إلى السماء ترفع صوتها معه) وآه كم أمقت هذه الأعراف أمقتها حتى النخاع ، لدرجة أني أفضل الموت عليها ، (تلاشت الكلمات مع الهواء فمسحت دموعها وقالت وهي تهيئ نفسها للذهاب) لا داعي للجزع ما هي محاضرة يشهّدها قلبي كل يوم وأنت أول أنّسي سمعها سيكون أمر جيدا أن تسمعيها قبل أن أدفنها إلى الأبد ...

قامت مغادرة ، بعد ثلاث أيام أقيم حفل زفافها لم يختلف عن تفاصيل الأعراس في تلك القرية المنسية التي تصاب حناجر النسوة بالبحة من الأغاني التي يجلل صداها المكان فتخاطب الجبال في حفوة الفخر بما يعيشونه مع الطبيعة التي روّضها الرجال والنسوة من أكبر الأعداء إلى منزلهم الأكبر وصديقهم الأقرب وتتراقص خصور البنات حول تلك العروس الحزينة التي كانت تنظر إلى التفاصيل بضجر ، بكت مع نصف كلمات الأغاني والمهمهمات داخلها كانت كحبل خانق وهي حقيقة الأقنعة ،الأقنعة العديدة التي كانت تراها حولها تلك الابتسامات والمجاملات ، كانت ضجرة لدرجة الصراخ ، في الأخير تزاحم حولها البنات ليضع قليلا من حنة العروس التي حسبهم كبطاقة يانصيب الفتاة التي لا يجب أن تخدش فعادتهم أن من تضع من حنة العروس تتزوج بعدها تماما كإكليل الورد الذي ترميه العروس وتلتف النساء لتلتقطه ، بعد تلك الأمسية التي وزعت فيها الحلويات والقهوة العربية الأصيلة زفت العروس إلى منزلها الزوجي كخطوة أولى لحياة جديدة ترغب بها كل فتاة تخاف منها في نفس الوقت ....

وسط تلك الأمسية المشددة بالحراسة الليلية ،فالأوضاع الأمنية مزرية هذه الأيام إنها أواخر التسعينات سنوات العشرية السوداء في الجزائر،زفت وريده إلى علي ،لم يكن الاعتياد بالأمر الجلل فقد خدمت تلك العائلة بكل صدر رحب وكانت تحب أخت زوجها شيماء رغم أنها كانت متخلفة ذهنيا إلا أنها أحب براءتها تلك كثيراً ....

الليـــــــــلة البيضـــــــــــاء

اقترنت الظلمة الشديدة بضوء متسخ عكر فكانت كليلة لا لون لها ، أُشْعل فتيل المصباح الزيتي العتيق أو "الكانكي" كما يسميه أهل المنطقة ، بدت الأرضية مرشوشة برذاذ ضوء متساقط من المصباح الزيتي ، بعد العشاء ولج كل غرفته فكان عمي صالح نائما بعد يوم شاق في الحقل وزوجته تنام بجواره، أما شيماء فكانت تنام رفقة وريده فعلّي كان في مناوبة الحراسة الليلة لأن الأوضاع الأمنية تزداد سوء يوم بعد يوم ...

شَخصت في سقف متهاوي تظهر النجوم من شقوقه كانت في أعماقها نزوة غريبة وإحساس مبهم لم تعرف وما هو سوى أنها وصفته بأنه شعور بالهدوء لكنه بدا كهدوء قبل العاصفة ، سحبت شيماء ذراعها وراحت تحضنه ، قبلت وريده رأسها وهي تبتسم منها حضنتها وهي تنام معها وجال في خاطرها كم تحسد شيماء لأنها لا تعرف فضاعة العالم الواقع ...

- كانت تشير الساعة إلى حوالي الثانية أو الثالثة صباحا لما سمعت وريده حركة غير اعتيادية في غرفة نوم عمي صالح وأصوات غريبة تتجول في المنزل ، قامت والخوف شل رجليها ، نظرت من ثقب الباب ، دبت رعشة في أضلعها قبل أن تدرك ما الأمر أغمضت عينها اليمنى للتمكن من الرؤية بوضوح ، فإذا بها ترى أسوء منظر في حياتها كان المنظر كئيبا ومرعبا وموحشا ،فقد رأت رجال بجثث ضخام وعلى رؤوسهم قبعات من صوف وعلى وجهوهم قماش لا يُظهر إلا أعينهم التي رسمها الكحل، ولم يأخذ الأمر بالوقت الطويل حتى أدركت أنهم مجموعة إرهابية ممن يبترون كل يوم عضو من أعضاء القرية ، خنقها البكاء لم تعرف ما تفعل راحت تعصر أصابعها وتسير ذهابا وإيابا في الغرفة تأكل شيئا من أظفارها ثم تنظر يمينا وشمالا أحكمت شعرها بكلتا يديها في عنف ، ثم تمنت الموت قبل مشاهدة ما رأته ، أعادت النظر فرأت أحدهم يشهر سلاحه في وجه العم صالح وأصحابه في شيء من الضحك لم تفكر في شيء سوى ماذا ستفعل ؟ أين تهرب ؟ هل ستموت ؟ لست مستعدة للأمر بعد.

هزت شيماء بعنف جرفتها وحثتها على الصمت وهي تضع يدها على فمها ، وضعت يدها في يد شيماء وأبعدت الطاولة بأقل صوت ممكن ووضعتها عند الباب في المدخل وأسرعت إلى فتح النافذة المطلة على قمة الجبل ، كان مشهد رهيب جدا في الظلام ، حملت الفراش ورتبته حتى لا يظهر أن شخصا ما كان نائما في الغرفة ،حملت شيماء رمتها من النافذة ثم قفزت خلفها وأغلقت النافذة ، جرت بسرعة قصوى جرت بأكثر سرعة يمكنها الركض بها راحت تسقط وتقوم ثانية وسط المنحدرات والدماء تسيل بحرية من رجليها وهي تلتف خلفها كل ثانية كان المشهد رهيبا مخيفا جدا لك تفكر أين تهرب ؟ بل لم تصدق أنها نجت لم تستطع التخيل أنها لم تمت شعرت بفنائها من العالم الحسي ،اتجهت إلى منزلها وطرقت الباب بأكبر قوة ممكنة كان أباها فوق السقف يحتضن سلاحه كانت ترتعد بخوف أصم أعمى لقد سكنها خوف صلب متجهم كان صوتها مرتجف مترقب، وكانت تترقب أحست بأصوات في الجهة اليسرى للباب لقد كانوا يسمعوها لا محالة ،وكان أباها ينظر إليها بالتأكيد أيقن أنها ابنته ، شهقت بشهقات متعالية : أبي افتح الباب كفاك من الأمر ، لقد رأيتهم من شق الباب قتلوا عمي صالح ، أنا فقط مع

شيماء أنا وهي فقط ،افتح لي الباب الأمر مرعب يا أبي لقد كان الأمر مخيفا أن أموت ....أعادت طرق الباب ولم تكف عن النحيب .لكن كلماتها كانت صماء لم يجبها أحد ودموعها كانت بكماء فلا أحد فهمها

سمعت بعدها أمها لقد سمعتها بوضوح

-اسمع يا رجل إياك أن تفتح الباب لها تموت هي وتلك الفتاة خير من أن نموت جميعا دعها تمضي أو اصرخ في وجهها ، شفقتك قد تجعلنا نموت جميعا لذا اتركها ...

هزت تلك الكلمات كيانها وكانت أقوى صدمة في حياتها ، صدمة أصعقت قلبها وأوتاره وحبست أنفاسها وتراجعت إلى الوراء وقد أفلتت شيماء منذ الوهلة الأولى ، تراجعت إلى الوراء ثم وقعت على صدى تلك الكلمات في خبايا نفسها المعذبة ثم استرجعت أنفاسها و خاطبتهم :

-ألست ابنتكما أم أني ولدت من رحم الغيب ، (تبكي ثم تقول) تتكلمون عن الشرف والأعراف هل لكم إنسانية ؟ أترجاكم أن تفتحوا الباب إن حياتكم مكر وخداع ، أذللت نفسي المتألمة سأموت سأمضي لأموت لكن روحي ستعذبكم هنا ستأتي كل ليلة تحيط بكم تقتل وتمثل (ينخفض صوتها) تصول وتتجول (يرتفع صوتها) تدمر تتجبر ،حتى يستقيم الحال ويزول العفن (تبكي بهدوء) ليس لي غير هذا الركود غير هذا القدر (يرتفع صوتها مجددا) هكذا شاء الله يا أبي ولكل قدره في الأرض ، وقفت في وجه الرياح وحدي متحدية ولا مفر من المعركة ..... ذهبت ثم عاودت الرجوع ، آه يا يمه [5] شكرا على الفرصة التي سرقها العفريت إنها صفقة تعافها نفسي بغطرسة واستبداد وتجهم وعبوس وصرامة شكرا على سيل الأوجاع ، ثم مشت غير مبالية تخاطبها شيماء :

- لماذا لا نجري يا وريده ؟

-لا نجري لأن القدر قدر الله قد نموت أو لا نموت ليكن ما يكون لم أعد أهتم لما سيحدث فلن نجد لسنة الله تبديلا

- ومن أين سنذهب الآن ؟

- حسنا (مسحت دموعها وهدئت قليلا): دعينا نذهب من هنا ، لا بل من هنا قد نصادفهم في أي لحظة (تسقط باكية) لم أعد أتحمل حقا ، لما يكتب علي الشقاء ،هل أعيشه رغماً عني ؟

[5] كلمة بالدارجة الجزائرية تعني أمي

ثم تنزل في منحدر صخري فتلمح في نهاية الطريق المعبّد مغارة عليها طحالب كثيرة فسلكت الممر بين الحجارة والصخور وهي تقود شيماء وتدخل تلك المغارة مختفية تحضن شيماء منصتة لأي حركة غير اعتيادية

وبعد مدة لم تعرف كم أشرقت شمس صباح جديد لتعلن عن ميلاد يوم جديد لم تكن وريده تدري ماذا ستفعل وهل ستستعد لانقضاء ليلة بيضاء أم أنها ستحزن لحياة معاناة تهرول نحوها ؟

أيقضت شيماء التي بالكاد نامت ثم قادتها وصعدت التلة نحو القرية لكن إلى أين؟إلى منزل لم يؤويها في لحظة ضعف

أنكرت في سكان قريتها ازدواج الجنسية وتلون المواقف لقد سأمت احترام التقاليد والأعراف التي تمقتها حتى النخاع مشت دون أن تفكر في وجهتها ، وصلت لنبع الماء فنزلت غسلت وجهها ، إلى أن أتت بعض نسوة القرية يملئن دلالهم وقِرَبَهم بادرتها لويزة تكلّمها:

-صباح الخير لقد وصلت باكرا اليوم كيف حالك ؟

-(تقول بصوت يسمعه من دنا منها فقط تصف مجيئهن): يا لسوء الحظ هذا الذي أصابني بلعنته والمصائب التي تنزل تباعا !

(تستفسر إحدى النسوة مستفسرة حائرة):ما بك ؟ ماذا جرى دون أن ندري ؟

(ردت بقلب يتقلب في جدران صدرها كذبيحة ترتجف): إنه الموت حتماً ،لا شيء غيره

(قالت أخرى):لكن ماذا دهاك ؟

تهيأت للركض وهي تحمل جوانب فستانها المتسخ وقالت شارحة موقفها :

ألا ترون كم تأخرت لأدرك الأجل

ضجوا ضاحكين وعلا صوتهم حيرى متسائلين ، ضمت شيماء ومشت مستعجلة الخطى وهي تلتفت خلفها خائفة وترتجف وقدماها أدمتها الطريق المليء بالحجارة والأشواك ،التي التصقت تعانق جلدها الطري الذي جعلت منه قاسياً ، فرت وفي نفسها رغبة ملحة للتخلي عن جسدها والمضو قدما مشت مذعورة كحيوان بري أصابته رصاصة صياد لم تجد سبيلا صحيحا سوى الابتعاد ولا درب صحيحا إلا الهروب ، ظلت تهيم بين الشعاب لمدة من الزمن وتنغمس في الأفكار ، بعد مدة عادت إلى آخر مكان أرادت العودة إليه وهو منزلها ، لم تدخل باب المنزل حتى

سقطت مغشيا عليها وآخر كلماتها "أكرهكم" ... كانت قدماها متشققين وتنزفا ونبضها مضطرب ونفَسُها خافت وثيابها ممزقة في حالة يرثى لها ولكم أن تتخيلوا كآبة المنظر ...

كابدت بعدها غيبوبة طويلة الأمد ما يقارب نصف عام، جيء لها بأطباء ورقاة من كل الأنحاء في تلك الفترة كان لحكايتها صدى في كل الولايات، ورغم أن الأوضاع الأمنية كانت سيئة جدا إلا أنه تنقل الكثير طمعا في مساعدتها ، لكن يأس الجميع من نجاتها وبعد ذلك بمدة ليست بالهينة فطنت من الغيبوبة لكن كانت وريده أخرى ، أو بالأحرى أصبح الجميع ينعتها بالجنون ،فما عادت تكلم أحدا صامتة عن الكلام كانت تنفذ ما يطلب منها وفي أغلب الحالات تجلس تخاطب ذاتها أو الطبيعة ، لا تشعر بمن يضربها فتكتفي بالابتعاد عنه لم تبك منذ ذلك اليوم ولم تبتسم أبدا ، حتى في عزاء أمها التي توفت بسرطان الرئة لم تنزل دمعة أبدا واكتفت بالانزواء وحيدة لم تعد إلى المنزل إلا بعد أن رحل الجميع ، بقت مع والدها فترة من الزمن ، وجاء يوم نطقت الشفاه الصائمة بكلمة جعلت الجميع يدهش لأسطورتها ، جاءها عجوز يبلغ سبعين سنة وهو أخصائي نفسي وتقدّم لخطبتها ، عارض أبوها الفكرة لكنها نطقت بالقبول بعرضه لا لشيء سوى أنه سيهجر بها إلى خارج الوطن فهو مقيم بفرنسا وبالفعل رحلت معه لتترك حكاية وريده على الألسن أثرا ...

كان زوجها الأخصائي النفسي مشرفا على حالتها وقد تحسنت حالتها ، بعد وفاته استقرت هناك وتعوّدت على الحياة الروتينية هناك لكنها لم تدردش بكلمة واحدة مع شخص آخر بعد وفاة زوجها ، توفي أبوها بعد مدة من هِجرتها لم تحضر جنازته أبدا ولم تزر قبره ، هل تظن أنها تبالغ ؟

عادت بعد عشرين سنة من تلك الحادثة إلى قريتها ، عادت كسائحة ، استقبلها أهل المنطقة بالورود لقد كان جيلا آخر ومن عاصروا حكايتها أصبحوا أمهات وآباء وأجداد ، وقفت على قبر شيماء تبكي وتشهق ....

كنتُ أقف على إحدى التلال ، أبتسم رفقة أمي وأختي وأنا أسأل عن ماهية تلك المقبرة فقالت أمي أنها مقبرة قديمة ، وكانت أمي من أهل المنطقة لكنها تزوجت في سن صغيرة من أبي ورحلت إلى العاصمة، ولم تسمع عن قصة وريده إلا من ألسن من عاصرها ...كانت أختي ثرثارة وتنعتني بالكاتبة التي تكتب في الفراغ ، رفعت رأسي فوجدت امرأة تبدو أنها ليست من المنطقة تنظر إليّ وتبتسم ، أنزلت رأسي وأنا ابتسم خجلة فأنا لا أجيد استقطاب علاقات جديدة ، بعدها اقتربت ودردشة مع أختي ، وسألتها : ألأختك كاتبة ؟

أجابتها دون مبالاة : ليس بكل ما تملكه الكلمة من معنى إنها هاوية فحسب

نادتني وسلمت عليّ جلست أمامها، فطلبت مني أن أكتب قصتها في كتاب أنشره ، تحمست لها لأني أحب سماع قصص واقعية ....بعد سماعها منها ، أعطتني معلومات الاتصال بها ، كانت أختي ترى موقفا غريبا ،مشيت بعدها أودعها وقصتها أثرت فيا أيما تأثير ، سألت أمي فأكدّت أنها قصة سمعتها أيضا ..... بقيت تلك الكلمات في أذني حتى طريق العودة إلى المنزل ''بالتأكيد تملكين أصدقاء وعائلة ، لكني لا أملك أحد غير ذكرى عن عزيز تسكن ذاك القبر (تشير لقبر شيماء) لقد علّمني هذا العالم الأنانية هل تعلمين لما ؟ لقد دفنت إحساسي بعد تلك الغيبوبة كانت الطريقة الوحيدة للنجاة والعيش أن أدفن كل الأحاسيس حتى لو رأيت شخصا يموت أمامي قد أعزي أحبابه وأسير لقد مر تابوت إحساسي منذ زمن أنا جافة لكن على الأقل لست منافقة '

تعجبت كيف أنها لم تدمع عيناها أبدا وهي تسرد قصتها لم تتأثر سوى لما رددت مات زوجي الذي جعلني إنسان طبيعي ....

إهداء :

إلى تلك التي جعلتني أكتب هذه القصة وهي لا تعلم حتى

هل ستقرئها قبل أن تموت ...

تلك التي قالت لي : إنهم يسمون النفاق

ذكاء اجتماعي والتقاليد انتماء

أنهم أغبياء عيشي حياتك

حققي حلمك دون الالتفات لأحد

شكرا للأمية التي علمتني

ما لم أجده في الكتب ،أهدي لك قصتك ....

المؤلفة "هاجر بسام"

هذه القصة نموذج بسيط عن ما عاشه سكان القرى المعزولة ، أثناء عشرية الإرهاب في الجزائر بداية من التسعينات ، إنها قطرة من بحر لمعاناة أيتام، أرامل ، مرضى نفسانيين لما عاشوه من فضاعة وعذاب ..لكل من عاشوا عذاب تلك الفترة أهدى لكم عملي ...

هاجر بسام تابوت الإحساس

العـــــــــــاهرة

قصة مراهقة منتحرة

" كنـت مراهقـة جميلـة ،آه نسـيت أن أخبـرك أن أسـمي ذكـرى ، أعـذرني يـدي المرتجفـة وأنـا أكتـب تجعلنـي سـيئة فـي التعـارف ، كنـت متميـزة تمامـا كاسـمي لاحظـت أني استعمل الفعل الماضي وفي النهاية ستدرك لما ؟

أنـا فتـاة تبلـغ مـن العمـر سـبعة عشـر سـنة خرجـت مـن الدراسـة مبكـرا لأنـي كنـت طائشـة كثيـرة المشـاكل لكنـي كنـت لطيفـة ، مفعمـة بالحيويـة إنـي موجـة مـن الحمـاس والتفـاؤل تسـير ، لـذا فمـا إن تجالسـني سـأجعلك تبتسـم ، لقـد كنـت سـريعة فـي تكـوين صـداقات ، أملـك حسـا اجتماعيـا قويـا وشخصـيتي تجـذب أي شـخص ، لـذا فيحبنـي كبـار السـن لأنـي املـك قلـب دافئـا قلـب يحـب بسـرعة ويكـره بسـرعة ولا أملـك روتـين إلا سرعان ما أغيره ، هذه الذكرى لها قصة ...

إنهـا أيـام الصـيف ولياليهـا القصـيرة التـي غالبـا أقضـيها مسـتيقظة طـوال الليـل أسـهر مـع الهـاتف الـذكي والانترنـت وأعـوض سـاعات النهـار نومـاً فـلا أسـتيقظ إلا بعـد مـرور نصـف النهـار خاصـة أنـي أقضـي صـيفي عنـد جـدتي مـن أمـي لأنهـا تحيطنـي دلال لا يصور وأقضي معظم وقتي خارجا أو على شاطئ البحر

المهم ، فـي يـوم مـن الأيـام التـي وصـفتها كنـت سـاهرة مـع ابنـة خـالي والتـي لا تشـبهني لأنهـا كانـت مـن عبـاقرة زمنهـا لكنهـا كانـت صـديقتي لأنهـا فـي مثـل عمـري وعبـر موقـع الفايسـبوك تلقيـت رسـالة لطلـب صـداقة ،هـي رسـالة غيـرت حيـاتي قبلتهـا ..حادثتـه ، قـال أن اسـمه عمـاد وهـو ابـن وحيـد لعائلـة ثريـة ، دردشـت معـه طـوال تلـك الليلـة وتعرفـت عليـه فـي فتـرة وجيـزة بعـد شـهر علـى الأرجـح مـن صـداقتنا عـرض عليـا لقـاءه لأنـه أراد لقـائي وفعـلا خرجـت معـه ،وبـدا شـابا ملفـت سـيارة فـاخرة وملابـس أنيقـة وكـان وسـيما جـدا حتـى أنـي شـعرت بفخـر داخلـي لأن لـي شخصـا مثله أعرفه ...

لهفـة البدايـة كانـت طويلـة ولـم أعـرف مـا كنـت أفعـل كمراهقـة لـم توقـف جماحهـا، كـم كنـت كالبلهـاء لا أعيـي أخطـائي وزلاتـي ..بعـد مـدة تطـورت علاقـاتي معـه ..بعـد مـدة لـم تكـن كافيـة لـم تكـن كافيـة البتـة لكنـي سـلمت نفسـي لـه باسـم الحـب ..أعجبتنـي حيـاة البـذخ التـي وضـعني فيهـا علـى السـهرات الليلـة التـي قـال أن حتـى عائلتـه تحضـرها ، والغيـرة التـي كـان يصـطنعها وحبـه المزيـف قـال أنـي ملكـه لا يجـدر بـي أن أنسـى هـذا

، لـم أسـتطع أن أميـز معدنـه الـذي بـات ظـاهر لـي بعـد فـوات الأوان ألححـت عليـه بعدها بـالزواج فكـان كـل مـرة يجدد وفائـه لـي وعلـيّ أن أثـق بـه وأمنحـه الوقـت الكـافي ليرتب إقامته هنا ..

كـان يـوم الخمـيس ثـامن عشـرة مـن ينـاير فـي عـز الشـتاء وأيامـه التـي كنـت أمقتهـا ومازالت كذلك ربما لأنها كانت من أيقظني

قمـت صـباحا مفعمـة بالنشـاط فتحـت هـاتفي وصـعقت لمـا رأيـت أنـه حضَـرني مـن كـل حسـاباته ،أصـابني الـذعر بشـدة لـم أفهـم مـا حصـل ولـم أرد تصـديق مـا فهمتـه فـي تلـك اللحظـة رغـم أنـه كـان واضـحا بشـدة ،راسـلته كثيـرا كـان هاتفـه خـارج التغطيـة قمـت أرتعـش وأنـا أدخـل أرقـام صـديقه أو مـن ادعـى أنـه كـذلك ففـي عالمـه لـم تكـن هنـاك غيـر الضـباع، لأول مـرة وجـدت نفسـي ضـعيفة كنـت عـاجزة ،عـاجزة جـدا لـم يجـب صـديقه ربمـا توقعـت هـذا ...انزلقـت علـى الجـدار جالسـة وأنـا مذهولـة نظـرت إلـى نفسـي أصـفعها ..وروحـي معلولـة ، معلولـة بشـدة كـان ألـم الخـوف يعتصـر جسـدي وقلبـي يكـاد يتوقـف أمسـكت قبضـتي أعضـها بقـوة لعلـي كنـت فـي كـابوس وكـان هـذا أقصى ما أملته في تلك اللحظة

لبسـت ملابسـي وهرعـت إلـى عملـه ، لـم يكـن موجـود ،حضـرت كـل حفلاتـه التـي أحبَّها وأماكن قصفه [6]*

كنـت أداوم كـل يـوم أمـام بـاب مكتبـه ،انهـرت فـي عديـد المـرات لـم أذهـب للطبيـب لأنـي علمـت فـي وقـت سـابق أنـي حاملـة بطفلـه كانـت مسـألة وقـت ليعـرف أهلـي ، فكـرت فـي طريقـة قتلـي والـدي لـي ، مـر أكثـر مـن شـهر علـى غيابـه ...فـي إحـدى الأيـام وربمـا أشـفق علـيّ الحـارس الليلـي الـذي كـان يصـادفني كـل يـوم أمـام مكتبـه ، كنـت جالسـة علـى ركبتـاي أشـهق وأنـا حـائرة مـاذا سـأفعل ؟ حـين دنـا منـي واقفـا علـى رأسـي وقـال لـي بصـريح العبـارة، أن مالـك المكتـب لـن يعـود فقـد طـار منـذ شـهر إلـى كنـدا وسـمع أنـه سـينتقل مـن المكـان قريبـا، أي أنـه لا ينـوي العـودة مشـيت كالمنتشـي بحبـوب مهلوسـة كنـت أضـحك سـاخرة ثـم أبكـي وعينـاي شاخصـة مثبتـة علـى الطريـق ، مشـيت كـالمخمور وسـط الحشـود التـي تصـطدم بـي كنـت فـي غيـر وعيـي بـدا الأمـر كابوس مريع ، مريع جدا لدرجة أني تمنيت الموت بدل منه

فكـرت فـي الهـروب مـن المنـزل والـذهاب إليـه لكـن الأمـر يطـول وبطولـه سيفضـح أمـري ..جلسـت أمسـك رأسـي بكلتـا يـدي إلـى أن رن هـاتفي ، أمسـكته فـي قهـر وخمـول ، قـرأت اسـم صـديقه علـى الشاشـة أجبـت وأنـا أحمـل آخـر أمـل فـي أضـلعي رد

---

[6] أماكن لشرب واللهو :

صوته يحمل خبر لي فقال أنه وجد عماد وأن عليّ الذهاب إليه إلى عنوان عهدنا الالتقاء فيه ،وصلت قبله إلى المكان المقصود لأني كنت أهرول ، الآن أبدو كم كنت حمقاء لأصدق أصدقاء من وضعني في محنتي، لكني كنت مصدومة ويائسة بشدة ، حملت هاتفي أعيد الاتصال به لكنه وصل قبل أن أفعل صعدت السيارة تفاجئت بأصدقائه الذين لم أعرف أي منهم، استفسرته فقال أن عليه أن يوصلهم في طريقه ، كنت مرتابة توقفت السيارة في زقاق مظلم، ماذا يحدث؟أحسست بيد خلفي تضع منديل على فمي قاومت لأبعدها ،لكني استسلمت للنوم..

(مرت فترة)

جفني مفتوح بنصف مسافة أين أنا ؟ الغبار يملئ الضوء الممتد من نافذة أو لست أدري ما هي (أغلق جفني مرة أخرى) أَفتحه مجددا ،بدا الجو معتم وباردا جدا رجلاي مخذرة من البرد ، الفوضى تعم المكان والغبار يملئ أنحاءه ،سقف خشبي وجدران ترابية ، أسلحة حديدية ومحركات قديمة رائحة الصدئ والتبغ، فتحت عيناي كاملة أدرت رأسي أين أنا بحق الجحيم ؟ أين أنا ؟ أدرت رأسي مرة أخرى أحفظ تفاصيل المكان ،أنا في مستودع ما ، مكبلة حاولت أن أفك قيدي لا فائدة ،سمعت قطرات الماء المتسربة من السقف تسقط ،كانت تكسر هدوء المكان المرعب تعزف موسيقى مرعبة ، لسبب ما لا أستطيع تحريك قدمي نظرت إلى بركة المياه المتجمعة أمام الكرسي الذي كنت مكبلة فيه لقد كان وجهي متورم يبدو أني عُذبت بشدة ، الآن أعي ذلك فكل عظامي تنادي ألماً كنت حافية القدمين

عاد شخص ما،كان واحدا من الأربعة لم أفهم لما اختطفت أصلا فما أنا فيه كان أكثر من قواي ،اجتمع حولي الأربعة كنت أشهق ..لعنتهم ،صرخت ثم ترجيت فعلت كل شيء لأنجو لكنهم رموني أرضا ولم أكن أدرك ما يجري غير الكدمات و الركلات التي كانت توجه لبطني ووجهي اعتصرت ألما شديد صرخت لدرجة جعلت صوتي يختفي فكرت في أني استحق على الأقل ، مددت يدي مستجمعة قوتي المتلاشية للنهوض إلى أن داست قدمه يدي رفعت بصري عاجزة ،فركل وجهي بقوة جعلتني أقع مستلقية على ظهري سمعت كلماته بسمعي المتلاشي ، لقد كان هو من أمرهم بفعل ما يفعلونه أراد قتل ما أحمله مقابل المال ، لقد اشترى حذفي وأنا أفكر في ذلك ابتسمت ساخرة كانت دمائي تملئ المكان كنت سأفقد الوعي عندما رأيتهم يهربون وملئت الضجة المكان ثم لم أعد ما حدث ...

فطنت بعد مدة وجدت نفسي في المستشفى وجدتي تجلس بجانب وسادتي وأمام باب الغرفة شرطيان ، فكرت في أني قد نجوت ولأول مرة تمردت لما كان عليّ النجاة لتحمل أخطائي كان الأجدر بي الوفاة وهذا ما شعر به الجميع حتى أمي فقد

كان اكتشف ماكان سيكشف، ومن غرائب الأحوال أني لم اخسر طفلي رغم كل ما تلقيته من عذاب وربما كان هذا الطفل الذي أحمله أكبر عذاب لي تنفست بعمق ..

بعد مدة عدت إلى المنزل تلقيت كل أنواع التعذيب النفسي والضرب من والدي ومن الكل نعتني الجميع بالعاهرة، كنت اسمع هذه الكلمة أكثر من اسمي الحقيقي على مسامعي، بل صرت أسمى عاهرة بكيت كثيرا و شعرت أني أستحق حبست طيلة أسابيع ،وعشت أسوء فترة لدرجة أني لم أتخيل شخصا آخر عُذب أكثر مني في الدنيا ،أدخلت المستشفى لسوء التغذية عديد المرات

بعد الفحوص تبين أنه ابنه ، حوكم فاختار أن يسجل الولد باسمه ويدفع الغرامة ويدخل السجن على الزواج بي ، في آخر الجلسات التي نقضها ،كنت أسير بصعوبة أمنع نفسي من السقوط لأني أعاني نقص التغذية ، التقيته لآخر مرة سألته بصوتي المبحوح ما الذي أجبره على فعل ذلك بي ؟ ضحك بسخرية يرمقني من شعري الذي قصصته إلى أخمص قدمي ثم قال : هل صدقتي أني سأتزوج عاهرة ، مشى ذاهبا أما أنا فشعرت أن كلمته كانت صفعة وجهت لي وجهتُ له كلماتي اليتيمة قائلة : لكنك أنت من جعلني هكذا ، أنت من صنعت هذه العاهرة "

طوت رسالتها في ظرف صعدت إلى أعلى الكرسي بتهاوي ،نظرت إلى شرفات المنازل المقابلة وأحكمت الحبل على عنقها هوت بالكرسي ،راحت تتخبط كالطائر الذبيح كأنها ندمت على فعلتها في آخر لحظة لما رأت كل اللحظات تبرز من شرفات المنازل في أجزاء من ثانية مر شريط أمامها كطفل حضن أمه في أول خطوات مشيه وزوجان يتشاجران وحبيبان يتبادلان القبل كانت بالفعل قد اقتنعت بجمال الحياة في اللحظات الأخيرة التي لفظت بها أنفاسها تشبثت ثم أرخت يديها مع صوت ارتطام الكرسي بالأرض فتحت أمها الباب

(صرخة الأم)

ولم تهنئ بحياة ولا بموت فكلاهما أخطأت فيهما ولم تفهمهما فلا هنئت بأي منهما..... ماتت العاهرة ....

- كمصاحبة عشرينية تعيش مراهقة متأخرة ، وكموعد أحمق ساذج ،ستبدو الحياة بسيطة، بسيطة لدرجة تجعلك ترينها كآخر ماركة ونوع جيد من هاتف ذكي بكاميرا أمامية تدهشك في السالفي ، إنها ما سيحاولنا إقناعك بها ، سيظهرون لك الحب كغريزة فحسب لتمقتيه فيما بعد تمقتيه حتى النخاع لتكون البداية كمن يلبس لباس السفاهة من أعلى هامته لأخمص قدميه ، فكل ما في القصة أنه يقنعك أنك الأجمل في نظره لن يرى غيرك يقنعك أنك مشروع حياته كيف لا؟ ولن تفرقكم

إلا الموت وقد يأتي الموت على هيئة فتاة جميلة أو تملك فيلا و سيارة والعكس صحيح ، سيقنعونك أن الحب علاقة عابرة هو مكالمة هاتفية بالساعات وإلا ليس حبا ، يعتبرونه لقاءات متكررة و صورك التي له الحق في امتلاكها لأنك حبيبته و يحض بثقتك وإلا أصبح الأمر أزمة ثقة ، سيجعلك تفكرين في فعل المستحيل لتتخلى عن العادات وتخرجي عن المألوف فالحب جنون ، جنون يجعله يلامسك يمتلك جسدك ...حبيبتي الحب أن يمتلك روحك لكنهم يلقنوك العكس ..حب في بلدي يجعلهم يفعلون المستحيل لأجلك ، يفعل المستحيل إلا شيء واحد وهو أن يتزوجك

هو حب وفق مواصفاتهم قد يجعلني أتقيأ الكلمات بقرف هل تعلمين ما سيحدث بعدها ؟ سيصنعون منك عاهرة ....عاهرة في أعين المجتمع ولن يتزوج هذه العاهرة أبدا التي لا تستحق حتى الحياة ...

- ختام هذه الرسالة لمراهقة منتحرة..

عزيزتي الحب ليس شيء معروف أو معّرف ليس ماهية أو مجرد ليعلمك شخص ما هذا الحب ، فالحب هو ما تمارسينه وفق نظرتك ، ما تؤمنين بأنه الصواب ، ما ترتبينه وفق أولياتك ، هو ما تريدينه وعلى أي أساس ما ترينه فهو ببساطة ما يناسبك وما يلاءم أفكارك فما ترينه منافي لما في عقلك حتى لو اتفق العالم على أنه حب ارفضيه فحسب لأنه لا يلاءمك فلا أرى أنه من الواجب أن أكلمك كل ثانية لأبين حبي ، بل أن أقف معك في ظروفك القاسية هذا هو ما أسميه حبا ....ليس أن أعترف بالكلمات بل الأفعال ما تبرر مشاعري ، ببساطة أحبي بقلبك و أقبلي بعقلك أي إياك أن تجعلي أي شخص يطبق عليك معاييره الشخصية .

(المؤلفة)

صديقة من الجحيم ..

المشاعر الإنسانية تشبه البالون الممتلئ بالماء إلى حد كبير تقودك في يوم ما إلى الانفجار من فرط الحركة، سيكون الانفجار أشبه ببركان خامد منذ زمن ،وتشيب بعمق الحوادث التي مرت بها فتمسي كورقة خريفية صفراء سقطت متمردة و أصبحت تساير الرياح في أي اتجاه تأخذها دون مبالاة في أي أرض تعيش أو أي أرض تموت ،ورغم أنها لا تهدف للفت النظر إلا أنها تلف النظر بالفعل بجمال تميزها عن بقية الأوراق الخضراء التي تتعلق بأغصانها رغم أنها نهاية كل ورقة خضراء بالفعل لا أدري أن كانت صورة التشبيه قريبة من الحقيقة لكنها كذلك للحقيقة التي أعرفها ، فكل له حقيقة بالفعل كتعريف الخيانة مثلا...

هل حاولت يوما أن تكذّب نفسك فقط لتصدق شخصا تحبه بصدق ..أنا لا أقصد حب العشاق بل تقدير صديقة كانت تقاسمني كل شيء إلا الاحترام الذي أعطيته لها و لم ترد نصفه لي..

كانت لي صديقة من الجحيم هي أبرز وصف وتشبيه استطعت أن أحصّله لوصف قصتي إنه جحيم الذكريات الذي جعلني كل مرة أتغاضى عن الأذى الذي سببته لي مما جعلها تقتنع أنها لم تفعل أي شيء لي ، جعلتها تقتنع أني أبالغ فقط في حساسيتي بل كانت مشاعر من الجحيم لم أقوى على تجاوزها إلا بصعوبة ،ويسعدني أني تجاوزتها ، على فكرة كان تشبيه الأشخاص و الأمور و الظواهر هي نقطة نبرع فيها ونقطة نتشابه فيها أنا وهي

من بين ما كنت أبرع فيه في فترة مراهقتي هي أن لي عديد الصداقات وهو الأمر الذي فقدت براعتي فيه بعد مرور مرحلة الثانوية و فقدت النية لفعله ... وكانت تلك الصديقة من بين من عرفتهم في تلك الفترة ومن غرائب الأحوال أني لم أفلت يدها طوال تلك المدة وربما أمسكت يدي هي الأخرى فقط لأن لا يداً أخرى تستطيع الإمساك بها ،على مدار خمس سنوات كانت أقرب صديقاتي ، ولكم أن تتخيلوا كم تعرفني ،كانت تعرف نقاط ضعفي و قوتي وعاداتي السيئة من البكاء بسرعة و مزاجيتي إلى إهمال تنظيف أسناني ، في فترة مضت كنت أُدين خيانتها لي لكن لم تعد لي الرغبة في فعل ذلك حتى بعد أن صرنا غرباء أشعر براحة لا مثيل فآمل من صميم قلبي أن لا تحرجين بعودتك

كانت لي صديقة تقاسمنا ذكريات جميلة وكثيرة ، دخلنا الجامعة معاً وتخصصنا في نفس التخصص كنا نتشارك نفس الطاولة في الصف ونفس شعور الألفة وأفهمها في صمتها وظننت أنها تسمعني في صمتي أيضا لكني كنت مخطئة ، في آخر سنة من مسار الجامعي فرقتنا الجامعة وهذا الشيء الوحيد الذي يجب أن أشكرها عليه ، بعد مدة تعرّفت على مجموعة فتيات أصبحن صديقتها ولم أكن أحب مصاحبتهن بعض الشيء ، اتسعت الهوة بيننا بعد مدة حتى صارت تتجاهلني عندما تكون معهم و رغم يقيني بما تراه عيني كنت أصدّقها لأني أحببتها بصدق ، ما ألماني كثيرا أني لم أكن أقوى على الوقوف في وجهها

وصراخ به لأني كنت أحبها فعلا لذا كنت ضعيفة جدا أمامها ، ضعفي وهشاشتي لم يكن شافعا لي أبدا ،أمست غريبة عني ورغم أني تخاصمت مع صديقاتها لأجلها إلا أنها أنصفتهن على حسابي، كنت أحبس دموعي بقوة عندما أرى ما تفعله حبستهم بعنف ، ما كسرني أن من كنت أفضل هذه الصديقة عليها في عديد المناسبات هي من كانت تمسح دموعي في كل مرة ...لأنها الشخص الوحيد الذي بكيت أمامها .....

لا أخجل من طفولة مشاعري أبدا لأني طيبة القلب ،فالعصافير لا تلام على حسن التغريد ولا يلام المسك على رائحته لأن هناك من يكرهها ، ولأني كنت ساذجة لمت نفسي لأني لم أصن صداقتي معها ، أما الآن هل تعتقدين أن الأمر كذلك ؟ أنت تبالغين في الأمر بالفعل ؟

لأني لا أفكر في الأمر أبداً ، بالعودة إلى قصتي آخر مسرحية قامت بها عندما وقفنا نتحدث، انفجر ذلك البالون الذي حبسته في قلبي لوقت طويل ، وأنا أراها تحلف بعظيم اسم الله كذباً كانت تكذّب قناعتي ، تكذب ما رأته عيني بوضوح ، فقدت القدرة على التحمل فبكيت و صرخت بأعلى صوت يمكن لدموعي لتترجمه ،ماذا كنت تظنين دموعي وشعوري تلك اللحظة هل كان مزحة ؟ ماذا كنت تظنين عندما كنت أترجاك للتوقف عن الحديث هل كان مزحة؟ في تلك اللحظة اليائسة ، في تلك اللحظة البائسة ؟ في تلك اللحظة التي قتلت فيها كبريائي ؟ في تلك اللحظة وللمرة الأولى التي بكيت أمام الملأ؟ رأيتك تبتسمين بسخرية وأنت تنظرين إليّ هل تظنين أني بقيت حزينة ؟ دعني أخيب ظنك :كلاّ ،في تلك اللحظة بالذات شعرت بأن أحزاني ذابت قرفا ، قرفت منك وشعرت بغضب على السنين التي أطلقت عليك وصف صديقتي ؟ لقد رأيت حقيقتك التي لا تعرفيها عن نفسك ، أنت فضيعة ، فضيعة بجد... فضيعة لدرجة السخرية من دموع وألم شخص ، وليس كشخص آخر كنت تضحكين لألم صديقة لم تفلت يدك لمدة سبع سنوات كاملة، كنت كلعنة قادمة من الجحيم ..صديقة قادمة من الجحيم ..كانت النهاية لائقة بالوداع فعلا أشكرك لجعلي أعرفك قبل أن أضيع المزيد من الوقت معك !

أتساءل هل تشعرين بالفضول ماهية مشاعري ؟ أنا لا أشعر بشيء اتجاهك كبقايا جمر انطفأت ولن تشتعل مجددا مطلقا ..أبدا ...أنت كشخص لا أعرفه التقيته كل يوم في باص الجامعة ، لا انطباع لك عندي أبدا

السببين في جعلي أكتب هذه القصة القصيرة هي أن أصوغ تجربتي لمن عاش مثلها لا تيأس فلحظات الحزن ثوانيها هي ثواني عادية، و ساعتها ساعات عادية ،وأيامها أيام عادية ستمضي لا تقلق..ولأتحدث عن عمق التجربة وعن قسوتها لا تظن أن الأمر مزحة إنه فعلاً قاسي ...

السبب الثاني هي أني سأصرخ بكل صوتي مستقبلاً بأني لي صديقة ، صديقة مسحت دموعي عندما أفلتت يدك يدي ... شكراً لجعل علاقتنا تقوى و جعلتني أعيي أن لي صديقة واحدة أحبها فوق الوجود

أتمنى أن لا نلتقي مجددا

كانت لي صديقة فضيعة .....

إهداء : إلى كل من خانوهم باسم الصداقة ، اشكروا قلتة مشاعركم لأنهم جعلوكم تعرفون معدنهم و لم يجعلوا منكم حمقى تتبعونهم مدى حياتكم

كنصيحة ابنوا نفسكم و طوّروا ذاتكم ولا تجعلوا ثقتكم تهتز فهي أغلى ما تملكون إنها نفسكم ...

هاجر بسام ثابوت الإحساس

الخيانة الحلال

- امرأة قوية:

- الساعة تشير إلى الثانية صباحا ، سمّرت بصرها في الجدار وهي تطلق تنهيدة في فراشها نظرت يمينها كان مكانه شاغراً لقد صار العمل يشغله كثيرا في الآونة الأخيرة فعلاً كلّمت نفسها و حاورت خاطرها :"أخشى أنه يقسو على نفسه أكثر مما يتحمّل ..لكني أخاف أن يتسلل شعور عدم الثقة أو شعور بالنقص، إن أخبرته أنه لا يجب أن يعمل لأوقات متأخرة." فكرت كثيرا قبل أن تتسلل من فراشها قائمة تجر قديمها التي لبست فيهما خفّان رقيقان أدخلت فيهما أصابعها وجرّت نصف راحة رجليها خارج الخف ..مشت دون صوت إلى غرفة فتاتيها فوجدتهما نائمتان إحداهما تضع كتاب على صدرها فيما نامت الأخرى و ضوء الهاتف المحمول الملقى على صدرها يضيء الغرفة أطفأته وهي تبعد خيوط الشاحن والسماعات عنها تغطيها مبتسمة ، التفت للأخرى تبعد عنها الكتاب و تغطيها هي الأخرى ،نظرت إلى جانبها فوجدت أقراص عديدة جالت في خاطرها عدد المرات التي نهتها عن تناول هذه الأقراص التي قد تكون لها مضاعفات أخرى حملتها لتضعها في جيبها وهي تتوعد بأنها ستكون صارمة هذه المرة ... خرجت بعدها بهدوء وهي تهز علبة الأقراص في يدها ، اتجهت للمطبخ ملأت كأس ماء من زجاجة المياه المعدنية وسرحت في تصميم الكأس الزجاجي ، ثم انتبهت فجأة فحملت علبة الأقراص تقرأ تركيبها ، أيقضها من تأملها صوت باب الحمام الزجاجي يغلق ، وقفت بنصف استقامة لترى من فتحته فتجّلى ابنها الأوسط حسام ، انتبه لها فمشى نحوها بعينين ناعستين نصفهما مفتوح ، عادت مسترخية تجلس مبتسمة ، سحب الكرسي جالسا قال بصوت مبحوح وهو يتثاءب :ما يسهرك ؟

-(ابتسمت تضع علبة الأقراص على الطاولة): عادة ...أصبح نومي خفيف حتى في الأيام التي أنام فيها في المنزل والأيام التي لا أناوب فيها.

-(تناول كأس الماء من أمامها يشرب ثم قال مشيرا إلى علبة الأقراص): ما تلك؟

-(حملتها متأففة): هدى ، إنها تقودني إلى الجنون

-(وضع الكأس مبتسماً): مهووسة الدراسة تلك ستجّن يوما ما ...(قام ذاهبا وهو يتهيأ للذهاب): ألم يعد أبي

-(أشارت بحاجبيها عالياً وهي تطوي زاوية فمها وحركت رأسها يمينا وشمالاً): العمل!

- لوّح بيده ذاهباً وهو يعود لغرفته تبعته ببصرها وهو يدخل ، نظرت إلى ساعة المطبخ خلفها علّقت وهي ذاهبة لغرفتها : تأخر الوقت عليّ أخذ قسط من النوم ...

- بعد ليلة تكررت مرة أخرى وزاد تكررها هذه الآونة ،اجتمعت العائلة صباحاً ، كانت عائلة تحسد على ترابطها و أحوالها ، أم مثقفة تعمل طبيبة جراحة و ابنتين توأمين هدى مهووسة بالدراسة لا تفتأ أن تضع الكتاب من يدها ، وندى تختلف أحوالها عن أختها بالنقيض تحب الفن وهوايتها الرسم والاثنتين مقبلتان على شهادة الباكالوريا ولهما أخوين أكبرهما حسام شاب طموح في أخر سنة للمرحلة المتوسطة وأصغرهم شهاب في المرحلة الابتدائية نشأ الأبناء في جو من الأمان والألفة بأب عطوف يحب أمهم المرأة القوية والرقيقة في ذات الوقت ... امرأة تحَدَّت نفسها وضحت بالكثير في سبيل هذه الأسرة ضحت بمكانة البنت المدللة لدى والدها فلقد عارض والديها زوجها بشدة فقد كان زوجها أقل قيمة منها وأقل جمالا وأقل ثقافة ،فكان مجرد شاب عاطل عن العمل أوقف دراسته لطيشه ،يجلس في حييه لساعات وهو يراقب بلا عمل مهم رغم أن أخلاقه طيبة إلا أنها لم تشفع له ، بعد سلسلة من الإضرابات عن الطعام والمقاطعات لتجمعات الأسرة رضخ الوالدين لطلب ابنتهم وتم قبوله على مغص، فلم يشأ كلامهما خسارة ابنتهما ففي النهاية هما شخصان ناضجان مثقفان فكلامها طبيب أمها أخصائية جراحة عظام لازلت لحد الساعة محاضراتها تملئ القاعة طلبة على آخرها بعد سلسلة من الانجازات في الولايات المتحدة الأمريكية، وأب جراح قلب له العديد من الكتب المنشورة ومن أكثر الرجال تأثيرا في حقبته ... كانت هذه حياة مريم فتاة وحيدة وأخ شاب يصغرها سناً لم يخن عادات عائلته فهو طبيب أيضاً

تلك المرأة القوية والرقيقة اسمها مريم جميلة جداً ورثت يدين مبدعتين فهي مختصة الجراحة العامة عينها كعينين غزال معتقل يلمعان دون سبب معين، تقف في وجه المصاعب شامخةً فقوّتها تساوي قوة رجل وأكثر ،محط أنظار الكل واحترام الجميع من أطباء متدربين يرونها مثال أعلى في نجاحها ،ومسؤولون يرونها متمردة لا يجرأ أحدهم على إرغامها لشيء ما ،ومرضى يحبونها لطريقة تعاملها الرقيقة والطيبة معهم كانت امرأة متكاملة بين القوة واللين والجدة والأناقة وكانت ستكون كاملة لولا عنادها في كثير الأحيان...

لكن مع مرور الأيام زاد قلقها فأصبحت تشعر بأن علاقتها مع زوجها اتسعت فيها هوة طفيفة، فتشعر أحياناً أنها ثقل وحمل عليه ،ويشعرها أحياناً أنها كل ما يملك، وتشعر من جديد أنها مهملة ثم يراضها بهدية هذا التذبذب في أحوال زوجها و وحيدها أنهكها في الأيام القليلة الماضية، رغم هذا لم تشك قدر أنملة أنه خانها أو أنه يفكر في التخلي عنها إنهما روميو وجوليت عصرهم وهو ما جعل منها متمردة لطيفة ، وشكلا ثنائي جميل ملائم بعد ما ساعدته في الحصول على عمل مرتاح مادياً في شركة خاصة بفضل التربصات التي دفعته لها، وبفضل معارفها جعلت منه رجل ناضج رجل يملئ حضوره المكان بقدرها تماماً وجعلت منه رجلا يجلس في حضرة أبيها بفخر ...

أحد الأيام الشتوية أين كان ينهمر المطر بغزارة والرياح تعصف بشدة ليعزف الرعد لحن غضب الطبيعة ،دخل زوجها وظهره مبتل من المطر من المسافة التي ترجلها من السيارة إلى مدخل الفيلا ، حملت من يده الحقيبة والمعطف المبتل الذي علقته عند المدخل ،ركض نحو الأريكة وهو يتناول الفشار من الصحن على الطاولة ، اعتدل واستفسر سائلاً: - ألم ينطلق اللقاء بعد؟

-(أجاب حسام وهو متحمس): ليس بعد

-(جلست على ذراع الأريكة وهي تغيض زوجها): هل ستكونون بخير إنه أول كلاسيكو منذ رحيل رونالدو إلى جوفنتوس

-(أجاب وهو يبعد يدها عن كتفه): سنكون بخير ونفوز دون شك

-(ضحكت تسخر منه،علقّ حسام): أمرك غريب لك الوقت لحفظ جدول المباريات وأسماء اللاعبين

-(أردف زوجها): إنها بلية ...

-(ضحكت تخرج لسانها وهي تغيضه): هل اخترعت كرة القدم ليراها ويهتم بها الرجال فقط

كانت تتابع المباريات بشغف وتعرف أسماء النوادي وما يناصره زوجها أرادت أن تكون له السند والحبيبة والصديقة التي تشاهد معه مبارياته، وتلعب معه ألعاب الفيديو لقد فعلت كل شيء لأجله فتصارحه حتى بعملياتها وهي تشرح له أبسط ما تفعله في روتينها ...

تمت تلك الليلة بعد ساعة متأخرة من السهر رفقة عائلتها ...لتبدأ في الغد يومها بقاعة الاستعجالات التي تعج بالمرضى ،والحالات الصعبة والناس التي أنهكها المرض ، عيون ناعسة من الليالي البيضاء التي قضوها من الألم ،وشفاه متيبسة من الألم وبيضاء من الشحوب ...كانت تنزل إلى قاعة في أوقات فراغها لتساعدهم، كانت مجدة في عملها شغوفة بالطب وكم من عملية صعبة وشبه مستحيلة جعلتها تنجح ، كانت أمهر طبيبة جراحة في محيطها ،سلسة ولا تقبل التأجيل حين يتعلق الأمر بالمريض لأنها تدرك أنه ترك حياته أمانة بين يديها وأي خطأ منها يمكن لأن يغير حياته كلها ..

العاشر من فبراير ..جو غائم متقلب وهي تتكئ على مكتبها بعيون ناعسة بعد ليلة بيضاء، أجرت فيها عملية صعبة لامرأة حامل وضعت صغيرها بولادة قيصرية وأصيبت بالتواء في الأمعاء، كانت منهكة أشرقت شمس الصباح التي ظلت تختفي وتظهر بين الغيوم كأنها تلعب الغميضة، فتحت عينها بعد أن أخذت غفوة قصيرة ، قامت تزيل تيبس أضلاعها وهي

تتجهز للعودة لمنزلها منهكة ، أدارت محرك السيارة وقبل أن تنطلق تناولت من جيبها علبة أقراص فيتامينات لتتناول قرص وأدارت السيارة ذاهبة إلى المنزل الذي لا يبعد كثيراً عن المستشفى ، دخلت منزلها فتفاجأت بأن زوجها في المنزل رغم أنه من المفترض أن يكون في العمل ، دخلت دون افتعال ضجة ، سمعت زوجها يتحدث في الهاتف من الواضح أنه كان يستعمل الضمير "هي" طرقها هاجس أنه يقصدها كان يتودد ويترجى من يحدثه قائلاً: طبعا ، سأحدثها لاشك في ذلك سأصطنع فرصة للحديث عن الموضوع حتى أني في المنزل وأنهيت العمل مبكراً،(دنت تسمع أكثر من حديثه لكن يبدو أنه انتبه لها فودع محدثه مقفلا الخط خاطبها ببرود وبصوت غاضب)

- هل تتسللين كاللصوص الآن ؟

-(لاحظت أنه غاضب رغم أنه لم يرفع صوته لكنها أدركت ذلك من نبرة صوته):هل اقتحمت المكان ، ثم أهناك لص يسرق منزله؟

- لا لم أقل ذلك ، لم تحدثي ضجة عند دخولك

-(سألته وهي تخفف وطأة الجدال وتنزع ملابس العمل): لما خرجت مبكراً من العمل ، أهناك خطب ما ؟

-(رمقها وتذوق الريق وهو يجيب): حسناً...ما من خطب ؟ أي خطب يجعل رجل ما يريد الخروج مبكراً لأنه اشتاق لمنزله

-(استدارت وهي تدرك أنه يخفي والهاجس أضحى حدس صادق): هل اشتقت لجدران منزلك مثلاً ؟

-(ابتسم)

جلست بقربه حاول الكلام رمقته بنظرتها الحادة فصمت ...

قام بعدها جالس على الأريكة ، أما هي بعد غفوة قصيرة قامت إلى المطبخ تحضر قهوة العصر مع حلوى ما ... وضعت القالب في الفرن وجلست بجواره وهي تتثاءب، أدارت بصرها فوجدته ينظر إليها خاطبته ببرود : إذا كان هناك شيء توّد قوله فتحدث لا ترمقني كطفل ينظر إلى لعبته التي كسرها ..

(نظرت له مدة لا بأس بها فلم يرفع بصره ، استدارت تنظر إلى الساعة لتجدها الرابعة إلا ربع ، فكرت في أن الوقت مر بسرعة) ، وأخيراً نطقت شفاهه بكلمة

حسناً مريم (انتبهت له ، أطلق نفساً، كانت قد وقفت لتتفقد أحوال قالب الحلوى) دعيني أصارحك بشيء مهم ، (هنا أدركت أن الموضوع مهم جمدت أضلاعها ترمقه، لم يترك لها

الوقت الكافي لتتكهن بما يريد قوله وقال الجملة بنبرة سريعة وهو ينظر لها) أنا أريد الزواج للمرة الثانية ، أنا أواعد امرأة ما وأريد الزواج منها

-(كانت كلماته قاسية كسيف وقع ليشق ظهرها بالفعل وشعرت بالأرض تدور بها ، ابتسمت والدموع تخنقها) هل أنت تمزح معي الآن (ضحكت من هول المصيبة) تمالكت نفسها والدموع تخنقها وقلبها يضرب صدرها بقوة، بقوة شديدة جعلت قفصها الصدري يتألم مع كل نبضة نظرت إليه كمحكوم ينتظر حكم بالبراءة أو الإعدام : هز رأسه وخفض بصره أنا جاد فعلاً

بكت بعمق ولم تتكلم كانت مصدومة، وتراجعت للوراء قبل أن تسقط جالسة وهي تنظر إليه باكية كان شريط حياتها يمر أمام عينيها لم تخرج أنفاسها بدت كمن بدأ بفقدان عقله ،ظلت حبيسة الصدمة وكل الكلمات والأسئلة والصراخ الذي يجب أن تصرح به مر سكوت وصمت لا غير مرت ربع ساعة وهي في تلك الحالة بدت أنها لم تكن تريد التصديق ، سألها إن كانت بخير ، ابتسمت وهي تبلل شفاهها بدموعها : هل أنت أحمق ؟ (حركت رأسها بالنفي) لا لابد أنك جننت ، اقتربت منه : أنت ثمل صحيح هل دخنت شيئا يذهب عقلك لا يمكن أن تكون جاد ، صرخ بها يهزها ، تمالكي نفسك هل جننتي ؟

سقطت وهي تركع على ركبتيها أمامه بكت بصوت مسموع شهقت بشدة وهي تسترجع أنفاسها بصعوبة بالغة حضنت ركبتيها، ثم وقفت متمالكة نفسها بعيين متورمتين من الدمع سألته لأول مرة : منذ متى ؟

-(اختصر): ليس بالمدة الطويلة ...لكن لا أريد أن أخسرك فعلاً

-(رفعت صوتها) : قلت منذ متى ...أريد إجابة

-(همهم وغمغم ...تعتع): ما يقارب نص عام

-(ابتسمت وهي تمسح دموعها): هل أنت بشري حتى ؟ كنت تجالسنا ، تأكل من طعامنا ، وتعيش معنا ، كيف تمكنت من النظر في عيني وقول أنك تحبني كل صباح ، كيف استطعت أن تلامسني كل ليلة وأنت مع امرأة أخرى ، (صرخت بأعلى صوتها) كيف استطعت أن تنظر في عيني أولادك كل هذه المدة .... أتريد حريتك لك ذلك لكن، لكن ....(صمتت تبكي وهي تمسح عينيها وتلتفت خلفها ، بصوت هادئ): هل تسمي نفسك إنسان ، أنت متوحش إنك فضيع ...

-(للمرة الأولى حاول الدفاع عن نفسه) : لست متوحش إنه حق كفله لي الله من أنت تسلبيني إياه

-(كانت كلماته كالصفعة لها): يبدو أنك لا تفهم ما فعلته أبدا ....هل الخيانة ما كفله الله لك ؟ لما لم تصارحني بداية ؟ ما أدراك إن كنت سأقبل أو أرفض ؟ لما تجزم أني لم أكن لأقبل ؟

-(صمت لم يجبها)

- لعنته ثم ترجته : لقد وقفت معك في كل أوقاتك ، أنجبت لك البنين والبنات ، أحببتك وتحديت كل ناس من أجلك ماذا فعلت لك لتخونني ؟

-(رمقها مترجياً): لا تصعبي عليّ الأمر ،حتى روميو وجوليت لو عاشوا كانوا سيملون من بعضهم، ليس الحب أبديًا ودائما كالقصص الخيالية

-(صرخت مجدداً): أصّعب الأمور عليك ، هل فكرت كم هي صعبة عليّ قبل أن تفكر في نفسك ، (ضحكت وهي تضع يدها على خصرها) روميو وجوليت ..قصص خيالية أنا لا أقرأ قصص الأميرات أنت تعرف هذا جيداً (ابتسمت) هل صدقت أنك كنت روميو؟ لم تكن هو أبداً لست أدامياً حتى...

(أطلقت نفساً): دعنا ننفصل

(لم يكلف نفسه عناء الرفض ، بل بدا أنه كان يوّد الانفصال فعلاً)

بعد مدة لست بالطويلة خرجت تجر حقائبها وهي ترفع رأسها شامخاً إلى شرفات المنازل أين وقفت نسوة جرفهن حب الاستطلاع....

لنرحم بعضنا من ألسنتنا ..

قضت عدتها في بيت أهلها ، وأتمت إجراءات الطلاق بسرعة تنازل على الحضانة بسهولة بالغة ، حاولت أن لا تقحم أولادها في مشاكلهما لكن الأمر كان كالنفخ في الرماد ، لم تفلح محاولتها في لمّ شتات تلك الأسرة المنهارة ولا في تقزيم الأمر، فقد جعل أبناءها يزرون أخصائيي نفسي ، كانت تبكي ليلاً معزولة منكسرة ، وتَجبُر مزاجها صباحاً كانت تحاول أن تبدو قوية أمام أولادها لكنها لم تريد ذلك في قرارة نفسها أرادت فقط البكاء كل يوم ، كانت تريد الصراخ والبكاء فقط ، لم تعد مستعدة لمواجهة العالم ، فتراوح حضن أمها لساعات وهي تشهق ثم تقوم لعالمها الكئيب مرة أخرى ، دامت على حالها تتقلب في أحوالها ، كدجاجة مذبوحة ، تتقلب يمينا وشمالا ، أو مختنق في غرق مميت أو سمكة خرجت لتوها من البحر ، لم تعد تريد أن تعيش أبداً ولا أن تعود حتى لحياتها السابقة ، لم تكن تريد شيء سوى النسيان لكن وقع الذكريات كان كجلاد يعذبها كل ثانية ،وجعل منظر أولادها وأصغرهم وهو يبكي اشتياق إلى والده الذي هجره كالملح على جروحها ، مضت أشهر لم

يكلف عناء السؤال عن ابنه ولا عن ابنتيه ، انهار ذاك البيت في زلزال مفاجئ وأضحت الأعمدة رثة غير راسية كانت تطفو منذ البداية ،تطفو فوق مياه الخيانة التي كانت تفرش الأرضية وتنام فوقها دون أن تدري ، هذا ما جعلها تحزن أنه خانها ، أنه لم يصارحها بل اختفى في نذالته لآخر لحظة ،ومثّل حسن نيته لآخر ثانية، كانت تقاوم ذاتها وألسنة الناس ومعاناة أولادها ...في البداية وقف إلى جانبها عائلة زوجها لكن سرعان ما ساندوا صف ابنهم ،رغم أنها ضحية لما يراها الكل جاحدة وليست امرأة مؤمنة ، لما تشير إليها أصابع الاتهام رغم أنه من خانها

لابد أنها أهملته .كانت امرأة متسلطة ، سليطة اللسان أم تري كيف كانت في العمل ...سمعت أنها كانت لا تعود إلى المنزل لعدة أيام ..بل سمعت من قريبة جارتها أنها كانت لا تعييره أي أهمية في النهاية لا تحتاجه في حياتها فهي طبيبة .... أما أنا فأظن أنها خانته و لم تسمع كلامه أي زوج سيسمح بمبيت زوجته في مستشفى مليء بالرجال ..تجيد لعب الدور ألم تري في المستشفى كيف تكون متسلطة ثم تعامل المرضى بحنان إنه انفصام الشخصية وحب الاهتمام ... هناك أقاويل عن أنها سحرته ....هذه الجمل كانت ما تسمعه مريم من الناس كل يوم كل ساعة ، كانت تتساءل كل يوم قبل نومها :لكني لم أهمله ولم يعارض عملي مطلقاً ،وكان الناس يثنون علي على عملي كيف لهم أن يغيروا رأيهم فيّ بعد مجرد خيانة ، لم أخنه مطلقاً كنت أحبه حباً فوق الوجود ، ولم أسحره مطلقاً لو كنت سحرته لبقي معي ولم يخني ، لست متسلطة أنا مجرد قطة وديعة في منزلي ، كنت أعاني الأمرّين في التوفيق بين منزلي والعمل ،أنا امرأة قوية فقط لكني امرأة في النهاية امرأة أحزن لفقدان أحمر شفاهي المفضل مثل أي امرأة ، نجاحي ، كوني امرأة عاملة في مجال صعب لا ينقص أنوثتي ، ما أدراكم كيف كنت أعيش؟ كانت تردد هذه الإجابات وتتبعها بسيل من الدموع ، تبلل به وسادتها ، سيل من دمع الخذلان ..

فبعد أن تخذل تصبح أكثر هدوء ،وأبخل حديثاً وأعمق نوماً ، وأطول صمتاً وكل حروفك بلا معنى هكذا أصبح حال تلك السيدة القوية ....

وهكذا أكملت عدتها ، وحان الوقت لتعود إلى عملها وتواجه المجتمع ،وهذا ما كانت تخافه بشدة وبالفعل ، أصبح روتينها تهامس حتى من المتدربين الذين تمردوا عليها ومن الرؤساء الذي تنمروا عليها وشمتوا بها من أحوالها

كانت تنقل الزميلات قصص عن زوجها : شراءه سيارة جديدة ، كانت كل أسبوع تسمع عن بلد جديد يسافر إليه مع زوجته الجديدة ، فحتى المقربون منها لم يكونوا أحسن حالاً بل تهامسوا شفقةً عليها ، تلك المرأة القوية أصبحت هشة تتهامس عليها الألسن ،ويتمرد عليها الناس ، فكان أفضل حل وجدته هو الرحيل والابتعاد حتى ولو كلفها ذلك الهروب من هذا

الماضي طوال حياتها ، والركض بعيداً عنه لما تبقى من عمرها ، والانعزال لآخر دقيقة من أجَلها ...

بعد عام ونصف لم تنس ما جرى لها ، بل كانت الناس تذّكرها كل ثانية ، لم ترحمها الألسن ولو لحين قليل ، بل لامتها في كل مرة ، الناس لا تنسى كذب من قال أنهم كذلك ، كان يتذكرون قصتها كل مناسبة ، كل حادثة طلاق أخرى ، كل دعوة لحفل زفاف ، كل نجاح زميلة ما ، نحن لا نرحم بعضنا أبداً ، إن الكلام قاتل ، الشماتة مرض يصغر صاحبه كل مرة ، نحن ننافق كثيراً عندما نشفق على بعضنا ، لا شفقة تنفع بل تزيد المظلوم سوء ، ولا اتهام أحدنا مفيد حتى ولو كان مذنب ، فالمجتمع يعذب من هم مثل مريم ، مريم ليست مجرد امرأة خانها رجل باسم الحلال ، وما أحلّ الله الخيانة أبداً ولن يحللّها مطلقاً ، هل تعلم ما معنى أن تكون مسلم ؟ هو أن تصلي كل أوقاتك في المسجد ، أن ترعى عائلتك ، أن تغض بصرك أن تحيي حياة الاستقامة أن تزكي أن تحج البيت أن تشهد وتستغفر أن تتبع هدى الله ونبيه ... إنها الأساس لتكون مسلم قبل أن تغطي الخيانة بالحلال ، وما الحلال خيانة وما الخيانة حلال ...

حاشى أن يكون ما يقوم به الخائن سنة ، ولا دين ، الخيانة لا دين لها ، ولنكن منصفين ونقف وقفة اعتدال بين الأمرين فإن تريد الزواج ثانياً وثالثاً ورابعاً هو ما أحله الله ، ليس أن تخون أولاً وثانياً وثالثا ورابعاً ...

في هذه القصة التي كتبتها ، لم أرد منها أبداً أي مبيعات للنساء ، ولا أريد أن أدافع عن حريات لا أساس لها في الدين ، لا من جانب المرأة ولا من جانب الرجل ، أنا لست عدوة للرجال ،ولا للنساء أيضاً ... ولست أريد من هذه القصة سوى تصليح اعوجاج في المفاهيم وتصحيحاً لها ، فلا عيب في التعدد ما دامت ترضى المرأة ، فهو حقها أخيرا ولا يجوز تكفيرها إن لم ترغب في مشاركة زوجها ، ولا يجوز تكفير رجل أراد الزواج والتعدد ، لكن الخيانة أمر بشع ...

لم أخف قدر أنملة وأنا أكتب هذه القصة لا في تقبلها ولا في كيفية فهمها ، فحاولت أن أووصل نظرتي و أووصل رأيي وما أراه الصواب ، وأن تُعرض عن قراءتها أم عن تقبلها فالأمر لك ، مادام أن أصحح المسار هو مسؤولية تعلمتها من كوني كاتبة و مسؤولية كوني إعلامية مثقفة وقبل كل ذلك مسؤولية كوني امرأة إنسانة مسلمة ...

فكل ما أريده عرض رسالتي لك الحرية في قبولها أو ردها أو إتلافها ...

"قانون العلاقات والزواج سهلاً جداً فلو غازل الرجل زوجته كما يغازل عشيقته أو امرأة أخرى لفرغت قاعات المحاكم من قضايا الطلاق " المؤلفة

" جميعنا نحكم على الناس من مظاهرهم أو أننا حكمنا بذلك ولو مرة واحدة في حياتنا: محجبة رجعية ،غير محجبة كافرة سيئة الخلق، بدينة إنها تحب الأكل أو شخصية شرهة ، شخص فقير إنه متسخ ، ملابس غير مرتبة إنه لا يملك حس بالموضة ، ملابس تقليدية إنه بدوي ، يطيل شعره إنه رجل أنثوي ، عفوية أو عفوي إنه بهدف الإغراء ،مرتب وأنيق دائماً إنه متكبر ، شعر أشعث أو كثيف إنه مقلد ، لا يتكلم كثيراً إنه متوحد يملك عقد نفسية .. ما استعرضته تواً ليست غياهب تفكير شخص مريض نفسي أو مصاب بانفصام في الشخصية ولا وجه نظر جاهل، بل إنها ما نحكم به على بعضنا في كثير الأحيان ولو بوصف واحد بيننا وبين أنفسنا ولم ندلي به ...، إن إعادة النظر في تصرفاتنا ستغير الكثير من الأمور ..لأننا نؤذي بعضنا البعض أكثر مما تفعل الدنيا ذاتها ، تجعلنا نظن أن الأمر سهلاً تجاوزته لولا الناس لولا جهلنا نحن أنفسنا ..

في هذه المجموعة القصصية التي لا أريد منها ربحاً ولا شهرة بل أريد مسح زجاج معتم يمنعنا من الرؤية السوية ولو لثانية من الزمن ...إنها عادتي حتى في يومياتي التي أمسح زجاج الحافلة شتاء ...

وكما قلت في البداية أريد نهاية لائقة فعلاً ، هذه القصص التي استعرضها هي ما جنيته من خبرات حياتي ،من قصص ائتمنني عليها أصحابها لنشرها للناس عن مراحل مظلمة من تاريخ، أو مناطق مظلمة في المجتمع ،إلى قضايا مجتمعية أُحكم عليها الإغلاق رغم أن هناك الكثيرون يعانون باسمها في صمت....هذه الرسالة تبدو واضحة جداً لكنها بالقدر نفسه لا تُولى أهمية، من كلمة على شخص أو حكم في حق إنسان، حياتنا مليئة بالقصص

وفي النهاية سيكون الأمر صعب أن تعرف بالضبط ما تريد ، لقد استغرق الأمر مني 19 سنة لأعرف ما أريد ، طوال 19 سنة وأنا أمارس هاوية وألبس ثوب أديبة هاوية حتى عرفت ما أريده بالضبط ، لأخرج هذه المجموعة القصصية إلى النور والتي أقتنع بها تماماً كاقتناعي بنفسي ...

إلى كل من مروا بتجارب فاشلة ...إلى كل من خذلوا ...إلى كل الفاشلين الذين يحاولون بجد ..إلى كل العاجزين في بقاع العالم أهدي لكم هذه المجموعة القصصية "

#إلى عمل آخر بإذن الله

-هاجر بسام

هاجر بسام تابوت الإحساس

لا أحلل أي نشر أو
اقتصاص من المادة
المنشورة وإلا
سيعرض صاحبه
للمساءلة القانونية
المؤلفة

2020